

# الكتاب الثالث

مأساة الموريسكيين

أو المررب المتنصرين

١٩٧ — ١٠١٨ هـ : ١٤٩٢ — ١٦٠٩ م

# الفصل الأول

## بدء التحول في حياة المغلوب

نقص الروايات العربية عن المأساة الأندلسية • علة هذا النقص • اهتمام الرواية الأسبانية بالافاضة فيها • بداية عصر الاستعباد • السياسة الأسبانية ومصير المسلمين • اتجاه ملكى اسبانيا الى النكت • تعليق النقد الحديث • بدء الاضطهاد • تحوير المعاهدة • كمنيس يحاول تنصير المسلمين • احراق الكتب العربية • الروايات الاسلامية عن مأساة التنصير • صدى المحنة فى مصر • أمة الموريسكيين أو العرب المتنصرين • قرار مجلس الدولة • الثورة فى بعض النواحي • التنصير المفضوب • نشاط فرديناند وايزابيلا • استغاثة المسلمين بملك مصر • سفارة ملك مصر الى فرديناند وسفارة فرديناند اليه • الثورة فى فيلا لونجا وهزيمة الاسبان • جنوح فرديناند الى اللين • الرواية الاسلامية عن هذه الحوادث • الزام المسلمين والمتنصرين بالسكنى فى أحياء خاصة • تحريم احرار السلاح عليهم •

لم يكن ظفر اسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة ، وسحق دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية ؛ ولم يكن فقد السيادة القومية ، وفقد الإستقلال والحرية ، والدلة السياسية ، والاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانیه على يد اسبانيا النصرانية . أجل كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال مملكتهم ، من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة ، وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومن الأسف أن الرواية الإسلامية لم تخصص تاريخ الأمة الأندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها ، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشنور يسيرة ، بل لم ينته إلينا سوى القليل عن مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، ولا توجد لدينا عن تلك المرحلة سوى رواية إسلامية واحدة هى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء

دونة بنى نصر» الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة . والذى كتبه فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠م) أعنى بعد سقوط غرناطة بنحسين سنة . كاتب مجهول ربما كان من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها ، وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مع ذلك مسالمين فى روحهم وسريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة ، سوى رسائل وشذور وقصائد نقلها إلينا المقرئ مؤرخ الأندلس فى مؤلفه «أزهار الرياض» ، ومعظمها مما كتبه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بتقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الإسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أنه فى عصور الإنحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية ، وتقل العناية بالتدوين التاريخي ، كما يقل فى جميع نواحي التفكير والأدب ، وأن نظام الطغيان المطبق والاضطهاد المروع ، الذى فرض على العرب المنتصرين ، كان كفيلاً باخماد كل صوت وتحطيم كل قلم ؛ والثانى وهو ما نرجحه هو فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت فى هذا الوقت ، والتى استطاع المقرئ أن ينقل إلينا شذوراً منها ، مما يدل على أن بعضها كان موجوداً حتى عصره أعنى فى القرن السابع عشر . ومن الغريب أن صاحب «أخبار العصر» لم يقدم إلينا عن مأساة العرب المنتصرين سوى نبذة يسيرة ، مع أنه عاصر معظم حوادثها ، وشهدها على الأغلب . ولسنا نجد ما يفسر به هذا الصمت من جانب الرواية الإسلامية الوحيدة ، التى انتهت إلينا عن سقوط غرناطة ، وما تلاه من الحوادث والخطوب ، إلا نظام الإرهاب الشامل ، الذى سحق كل متنفس للشعب المغلوب .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية ، تشغل بالعكس فى تاريخ اسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن ونصف ، وتخصه الرواية الإسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الإسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الإستشهاد المفجع ، الذى فرضته اسبانيا على العرب المنتصرين ، وإلى تلك الجرائم المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق (١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية التى اتخذت لتثريد العرب المنتصرين وإبادتهم

(١) هى المعروفة خطأ « بمحاكم التفتيش » The Inquisition وسنعود إلى الكلام عليها .

بعين الكبرياء والرضى . وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى ، وتطهيراً للدين والوطن من آثار الإسلام الأخيرة . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ اسبانيا بكثير من القصص والأساطير الحماسية ، التى تشيد بظفر اسبانيا النصرانية ، وبما أسبغته العناية الإلهية على خطتها وسياستها فى إبادة تراث الإسلام والعرب المنتصرين . وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الإسلامية المجيدة ، التى ازدهرت فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها ، وكل ذلك التراث الباهر .

على أن الرواية الإسبانية بالرغم من تأثيرها العميق بالعوامل القومية والدينية . تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر . وقد لاتفن فى بعض المواطنين والمواقف بعطفها ، وأحياناً باعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة ، التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها ، وعن تراثها القومى والروحى .

لبثت السياسة الإسبانية بعد سقوط غرناطة ، وبعد أن حققت اسبانيا النصرانية بالقضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، أعظم أمانها القومية ، مدى حين تلتزم جانب الروية والاعتدال .

ولما غادر فرديناند وإيزابيلا غرناطة بعد دخولها ، أوصيا جاكها الجديد الكونت تنديلا ( المركز دى مونتمخار فيما بعد ) بالرفق فى معاملة الرعايا الجدد ، والعمل على التقريب بين العناصر . وكان من أثر ذلك فى البداية أن رغب الكثيرون فى البقاء ، واشتروا الزباغ العظيمة من الراحلين بأجنس الأثمان (١) . واتخذت الأهبة من جهة أخرى لنقل المسلمين الراغبين فى الهجرة إلى المغرب ، وهاجر كثير من أشرف غرناطة ، وفى مقدمتهم بنو سراج وغيرهم من أنجاد غرناطة القدماء ، وأقفرت مناطق بأسرها من أعيان المسلمين ، ولا سيما منطقة البشرات . وكان تدفق سسيل المهاجرين دليلاً على أن الشعب المغلوب ، لم يكن واثقاً فى ولاء سادته الجدد (٢) . وهكذا أبدى فرديناند وإيزابيلا فى الأعوام الأولى رفقاً وليناً فى معاملة المسلمين ، ولاح وبهى حين أن اسبانيا النصرانية تنوى أن تحافظ على العهود التى قطعت ،

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos of Spain; p. 23

وعاش المسلمون بضعة أعوام في نوع من السكينة والاطمئنان ، ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشى دائماً ذلك الشعب الذكي النابه ، وكانت الكنيسة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية القديمة ، وتضطرم رغبة في القضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية في اسبانيا ؛ وكانت غرناطة ما تزال تضم كتلة مسلمة كبيرة ، تربطها بثغور المغرب صلوات وثيقة ، وكان وجود هذه الكتلة المسلمة في قلب اسبانيا النصرانية ، شغلاً شاغلاً للسياسة الإسبانية .

والظاهر أن السياسة الإسبانية ، لبثت مدى حين مترددة في انتهاج المسلك الذي تسلكه إزاء المسلمين ، وقد كانوا من أهم عوامل النشاط والرخاء والعرفان في اسبانيا ، وكانت براعتهم قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وخلالهم قدوة في النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق ، وكانوا على الجملة من أفضل العناصر الذين يمكن أن تضمهم دولة متمدنة (١) . ولكن الكنيسة كانت تضطرم حماسة في سبيل تحقيق مثلها ، ولم تكن السياسة الإسبانية في تلك الفترة من تاريخ اسبانيا سوى أداة لينة في يد الكنيسة ، التي بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها .

ولم تكن هذه السياسة في الواقع بعيدة عما يخالج ملكي اسبانيا ، فرديناند الخامس وزوجه الملكة المتعصبة إيزابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين بتأمينهم في أنفسهم وأموالهم ، واحترام دينهم وشعائرتهم ، لتحول دون تحقيق أغراض السياسة القومية . ذلك أن فرديناند لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلاً لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ، ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته .

ويعلق النقد الغربي الحديث على ذلك بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التي قطعت لمسلمي غرناطة) بولاء لتغير مستقبل اسبانيا كل التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن ، ولتفوقت المملكة الإسبانية في فنون الحرب والسلم ، وتوطدت قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذي انقضى ، وأفضى التعصب والحشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية

بالمغلوبين ذلة مروعة . فاتسعت الهوة بين الأجناس على كر الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وأدى إلى علاج كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا « (١) .  
وأخذت سياسة الإرهاب تجرف في طريقها كل شيء ، ونشط ديوان التحقيق ، (Inquisition) أو الديوان المقدس ، يدعمه وحى الكنيسة وتأييد العرش ، إلى مزاوله قضائه المدرس . وكانت مهمة هذه المحاكم الكنسية المروعة أن تعمل على حماية الدين (الكثلكة) ، ومطاردة الكفر والزيف بكل ما وسعت ، وكان جل ضحاياها في البداية من اليهود والمسلمين ، ثم الموريسكيين أو العرب المنتصرين . وسنعرض في فصل خاص إلى تاريخ هذه المحاكم واجراءاتها ووسائلها ، التي تنافى كل عدالة وكل قضاء متبذل .

وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة ، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين . وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها أعنى تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع ، ومختلف وسائل التأثير المادية ، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجضحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة ، وأذعنت السياسة الإسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ماقطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائهم ؛ وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران ، هما الكردينال كمنيس مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، والدون ديخو ديزا « المحقق العام » لديوان التحقيق (٢) .

وحاولت السياسة الإسبانية من جانبها أن تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت في تحوير العهود والنصوص التي تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعاً ، فأغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين إقامة شعائهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم (٣) . وأدرك المسلمون ما ترمى إليه السياسة الكنسية من محو دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، ودوت في آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوة الصادقة ، التي ألقاها إليهم فارس غرناطة يوم اعتزموا التسليم للعدو

(١) Dr. Lea : The Moriscos, p. 22

(٢) كان المحقق العام General Inquisitor وهو قاضي قضاة الديوان ، يمثل يومئذ أعظم

السلطات الدينية والقضائية في اسبانيا .

(٣) أخبار العصر ص ٤٥ .

« أعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ، وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ماله من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون . إنهم جميعاً ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم ، إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك والرق ؛ ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نساءكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتببة ، لتجعل منكم حطاماً هشياً » .

وفي سنة ١٤٩٩ ( ١٤٩٥ ) ذهب الكردينال كنييس إلى غرناطة ، وحث مطرانها الدون تالافيرا على اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة ، واستعمل الوعد والوعيد والبذل والإرغام في تنصير بعض أعيان المسلمين ، وكان من هؤلاء آل الثغرى الذين اشتهروا في الدفاع عن غرناطة ، وقد نصر عميدهم قسراً وسمى باسم « جونزالفو فرنانديز ثجري » . بل تقول الرواية الإسبانية إنه قد تنصر أيضاً أخ للسلطان أبي عبدالله ، وتسمى باسم الدوق خوان دى جرانادا ( أى صاحب غرناطة ) وخدم قائداً في الجيش القشتالى ، واشتهر بغيرته في خدمة العرش (١) . واحتج بعض أكابر المسلمين على هذه الوسائل ، ولكن ذهب احتجاجهم وتمسكهم بالعهود المقطوعة سدى ؛ وزاد كنييس على ذلك فأمر بجمع كل ما استطاع جمعه من الكتب العربية ، ونظمت أكاداساً في أكبر ساحات المدينة ، وكان فيها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكثير من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النار فيها جميعاً ، ولم يستثن سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة الكالا ، وذهب ضحية هذا الإجراء الشائن عشرات ألوف من الكتب العربية ، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإسلامى في الأندلس (٢) .

(١) كان للسلطان أبي عبد الله أخ شقيق هو يوسف فهل هو الذى تعنيه الرواية النصرانية ؟ بيد أننا نرجح إذا صححت الرواية الإسبانية أن الذى تنصر هو أحد أخوته لأب وهم أولاد حظية أبيه ثريا النصرانية . راجع : Lea : The Moriscos p. 31 & 214

(٢) يختلف المؤرخون الإسبان في تقدير عدد الكتب العربية التى ذهبت ضحية هذا الاجراء فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون كتاب ، والبعض الآخر بخمسة آلاف فقط . ويقدرها كوندى بثمانين ألفاً ، وربما كان تقديره أقرب إلى المعقول راجع Prescott : Ferd. and Isabella p. 451-53 & notes

ولم تقدم الرواية الإسلامية المعاصرة إلينا كثيراً من التفاصيل عن هذه الحوادث .  
ولكنها تكتفى بأن تجمل مأساة تنصير المسلمين في هذه الكائنات المؤثرة :  
« ثم بعد ذلك دعاهم ( أى ملك قشتالة ) إلى التنصير ، وأكرههم عليه وذلك  
في سنة أربع وتسعمائة ، فدخلوا في دينهم كرهأً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ،  
ولم يبق فيها من يقول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » إلا من يقو لها في قلبه ،  
وفي خفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان ، وفي مساجدها  
الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب  
حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحق بأخوانهم  
المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً ، وينظرون إلى أولادهم  
وبنائهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون  
الخمر التي هي أم الحبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيمهم ،  
ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيألها من فجيعة ما أمرها ،  
ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها » . ثم يختم بقوله : « وانطلقاً من الأندلس  
الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه  
راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » (١) .

ونقل إلينا المقرئ نبذة من رسالة أخرى يشير كاتبها إلى تنصير مسلمي الأندلس  
فيما يلي :

« وتعرفنا من غير طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس طرق  
أهله خطب لم يجد في سالف الدهر . وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق  
بما يقتضى في الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر . وكان الابتداء في ذلك من أهل  
غرناطة ، وخصوصاً أهل واسطتها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم  
العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقى بها من المسلمين إنما  
هم أسارى في أيديهم ، وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعازل ،  
وعتوا فيهم بالخروج والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقض العين طاغية  
النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده . . . . . الخ » (٢) .

(١) أخبار العصر من ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ من ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ .

وجاء في رواية أخرى هذا الوصف لمأساة التنصير : « إن طاغية قشتالة وأرغون صادم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقي بها من الأمة ، بعد أن هيفض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعد جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى في الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان كل مسلم يندبه ويبيكيه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقطاره ونجومه . ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ، ومن كان يعذب في الله بأنواع العذاب ، ويُدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مفضعه ، وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشردمة القليلة من المسلمين مسلولة ، وأفواه الذاهلين مخلولة ، وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر إن يمطل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، ويطلبون لطف الله على كل حال » .

وقد تردد صدى هذه المحنة التي نزلت بمسلمي الأندلس بسرعة في سائر جنباة العالم الإسلامي ، ففري ابن إياس مؤرخ مصر ، وهو راوية معاصر ، يادون في حوادث صفر سنة ٩٠٦هـ ( أغسطس سنة ١٥٠٠م ) أعنى عقب محنة التنصير بأشهر قلائل ما يأتى : « وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين ، وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثار عليهم المسلمون ثانياً وانتصفوا عليهم بعض شىء ، واستمر الحرب ثائراً بينهم ، والأمر لله تعالى في ذلك » (١) .

\* \* \*

تلك هي المأساة التي استحال فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المقروض ، إلى طائفة جديدة عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين Moriscos ، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين (٢) . وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً ، ولم تحجم

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) Moriscos هي تصفير كلمة Moors ومعناها المسلمون أو العرب الأصاغر ، رمزاً إلى ما انتهت

إليه الأمة الأندلسية من السقوط والانحلال .

السلطات الكنسية والمدنية ، عن اتخاذ أشد وسائل العنف . ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تدمير ودون مقاومة ، وسرت إليهم أعراض الثورة ولا سيما في المناطق الجبلية ، حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية . وكانت السياسة الإسبانية تلتزم الوسيلة للتخلص نهائياً من العهود المقطوعة ، فألفت في التدمير والمقاومة سندها ، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة ، ولا سيما بعد ما تبين من جنوحهم إلى الثورة . ومحاولتهم الإتصال باخوانهم في المغرب ومصر وقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية . وفي المخالفين منهم من الأراضي الإسبانية . وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير المغضوب ، وعلى كل ما يتخذ لتحقيقه من إجراءات العسف والإرهاق . وقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة ، وسرعان ما سرت إليهم الحمية القديمة ، فأعلنوا الثورة في معظم نواحي غرناطة ، وفي ربض البيازين وفي البشرات ، ولكنهم كانوا عزلاً ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة فزقتهم بلا رأفة ؛ وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة ، كثيراً منهم على الإذعان والتسليم فقبلوا التنصير المغضوب ملاذاً للنجاة ؛ ولجأت الحكومة بعد إخماد الهياج في غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس في مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً في اجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود ، وذاع التنصر في غرناطة ووادي آس وبسطة وألمرية (١) .

ونشط فرديناند إلى إخماد الهياج . وفي الوقت الذي غدا فيه التنصير أمراً محتوماً ، وضحى فرديناند يعتبر نفسه في حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، تقدم إليه ديزا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان للتحقيق في غرناطة ، يعاون على مطاردة الزيف بوسائله الفعالة . فألفت لجنة ملكية للتحقيق في حوادث غرناطة . وقبض على كثير من المسلمين بتهمة التحريض ، وهرع آلاف منهم إلى اعتناق النصرانية خيفة السجن والمطاردة . وعارض فرديناند وإيزابيلا في إنشاء ديوان التحقيق في غرناطة ذاتها ، واقترحا أن تحال شئونها إلى اختصاص ديوان التحقيق في قرطبة ، وألا يقدم المسلمون أو الموريسكيون إلى الديوان إلا لهم خطيرة . ولكن الكنيسة لم تقنع باتخاذ الإجراءات

الجزئية ، ومضت تعمل لغايتها الشاملة . وكان فرديناند من جهة أخرى لا يزال يتوجس من المسلمين شرّاً ، ويرى في منطق الكنيسة قوة ، وهو أن احتفاظ المسلمين بدينهم يقوى الروابط بينهم وبين إخوانهم في إفريقية ، وأن اسبانيا ماتزال تضم بين جوانحها عدواً يخشى بأسه ، وأن في تنصير المسلمين أو إخراجهم من اسبانيا ، سلام اسبانيا ونقاد دينها .

وكانت الكلمة للكنيسة دائماً . ففي ٢٠ يولييه سنة ١٥٠١ أصدر فرديناند وإيزابيلا أمراً ملكياً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة » فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصرولثلا يفسدوا إيمانهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال .

وحاول المسلمون في يأسهم أن يلجأوا إلى معاونة سلطان مصر ، فأرسلوا إليه يصفون إكراههم على التنصر ، ويطلبون إليه أن ينذر ملك اسبانيا بأنه سوف ينكل بالنصارى المقيمين في مملكته ، إذا لم يكف عنهم ، فنزل سلطان مصر عند هذه الرغبة ، وأرسل إلى فرديناند يخطره بما تقدم ؛ فرد فرديناند بأن أوفد إلى بلاط القاهرة سفيراً هو بيتر ومارتيري وهو من أعلام الكتاب والمؤرخين في ذلك العصر . ووفد مارتيري على القاهرة في أواسط سنة ١٥٠١ ، وكان ملك مصر يومئذ السلطان الأشرف جان بلاط ، فأدى مارتيري سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئننه على مصيرهم ، وقدم إلى السلطان شهادات من حكام المغرب ، تفيد أن كل المسلمين الذين آثروا الهجرة ، قد نقلوا سالمين إلى ثغور المغرب ، وأحسنّت معاملتهم ؛ واستطاع مارتيري فوق ذلك بذلاقتة وكياسته ، أن يقنع السلطان بأن يعفى الحاج النصارى ، من طائفة من المغارم والقروض (١) . وهكذا خبت آمال المسلمين تبعاً ، ولم تصمد الثورة إلا في المنطقة الجبلية

(١) بيتر ومارتيري إيطالي ولد سنة ١٤٥٥ وتوفي سنة ١٥٢٥ ، وكان حبراً وكاتباً كبيراً ، شهد حروب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرديناند ، وكتب عن سفارته إلى مصر كتاباً . وله مؤلفات أخرى عن تاريخ اسبانيا في ذلك العصر ؛ راجع : Prescott : ibid ; p. 287 ؛ وكذلك

الواقعة بين آكام فيلا لونيغا وسيرا فرميا بجوار رندة ، حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا شعب الجبال ، وأن يفتكوا بعمال الحكومة وجندها . وسير فرديناند إلى تلك المنطقة حملة قوية تحت إمرة قائده الشهير الفونسو دى آجيلار دوق قرطبة ، فتبعهم الجند الإسبان هنالك في شعب فيلا لونيغا . ووقعت الواقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، فهزم النصارى هزيمة فادحة وقتل منهم عدد جم ، وكان قائدهم دى آجيلار وعدة آخرون من السادة الأكابر ، في مقدمة القتلى (مارس سنة ١٥٠١) .

فكان لهذه النكبة التي نزلت بالجنود الإسبان وقوادهم ، أعمق وقع في البلاط الإسباني . ورأى فرديناند بالرغم مما كان يحذوه من عوامل السخط والانتقام ، أن يمنح إلى الالين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار بشرط أن يعتنقوا النصرانية في ظرف ثلاثة أشهر . أو يغادروا إسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فأثر معظمهم النفي والجواز إلى إفريقية ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الإسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم (١) . إذ كانوا أشد العناصر مراساً وأكثرها نزوعاً إلى الثورة . واستقر الباقون وهم الكثرة الغالبة من المسلمين في البلاد خاضعين مستسلمين ، وقد وصفهم يومئذ بعض أخبار الكنيسة بقوله : إنهم شعب متين الخلق ، أشرف في معاملاتهم ، ليس بينهم عاطل ، يعطفون أشد العطف على فقراءهم (٢) .

ولم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إلى هذه الصفحة الأخيرة من جهاد المسلمين الباسل في سبيل دينهم ، فقد نقل إلينا المقرئ عنها ما يأتي :

« وبالجملة فانهم (أى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر ، واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأما كن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسيياً إلا ما كان من جبل بلنقة (أى فيلالونيغا) فان الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان

(١) Prescott: ibid; p. 467

(٢) Dr. Lea: The Moriscos; p. 213

إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصير من المسلمين ، يعبد الله خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة ، فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً» (١) .

ومضت السياسة الإسبانية في اضطهادها المسلمين والموريسكيين بمختلف الفروض والوسائل . وكان من الإجراءات الشاذة التي اتخذت في هذا السبيل ، تشريع أصدره فرديناند بالزام المسلمين والموريسكيين في المدن ، بالسكنى في أحياء خاصة بهم ، على نحو ما كان متبعاً ضد اليهود في العصور الوسطى ؛ ونفذ هذا التشريع في غرناطة عقب حركة التنصير الشامل ، وأُفرد بها للمسلمين والمنتصرين حيّان ، أحدهما يضم نحو خمسمائة منزل وهو الحى الصغير وهو داخل المدينة ، والثاني يضم نحو خمسة آلاف منزل ، ويشمل ضاحية البيازين . وكانت الأحياء التي يشغلها المسلمون أو المنتصرون في المدن الأندلسية تسمى « موريريا » Moreria أو أحياء الموريسكيين ، على نحو ما كانت أحياء اليهود الخاصة تسمى « الجيتو » Ghetto . وكانت تفصل بينها وبين أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكان عدد المسلمين الذين بقوا في غرناطة يبلغ في ذلك الحين نحو أربعين ألفاً (٢) .

وصدر في نفس الوقت في سبتمبر سنة ١٥٠١ قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً ، وينص على معاقبة المخالفين لأول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم بالموت بعد ذلك ، وهو قانون تكرر صدوره بعد ذلك غير مرة في ظروف وعصور مختلفة ، وكان يطبق بصرامة بالأخص كلما حدث من الموريسكيين هياج أو مقاومة مسلحة تخشى عواقبها .

(١) نفتح الطيب ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ . وراجع أخبار العصر ص ٥٥ .

(٢) Dr. Lea: The Moriscos; p. 31, 151 & 152

# الفصل الثاني

## ديوان التحقيق الإسباني

### ومهمته في إبادة الأمة الأندلسية

أصل الفكرة في محاكم التحقيق الأولى . اجراءاتها وعقوباتها . التوسع في اختصاصاتها . قيام محاكم التحقيق في أراجون . النزعة الصليبية في اسبانيا . مطاردة اليهود المنتصرين . محاولة البابوية اقامة الديوان في قشتالة . معارضة فرد يناند وايزابيلا . مساعي الاحبار والقس تركويمادا . موافقة فرد يناند وايزابيلا . صدور المرسوم البابوي بانشاء ديوان التحقيق في قشتالة . قيام ديوان التحقيق الإسباني . بداية نشاطه في اشبيلية ، اتساع نطاق أعماله . انشاء المجلس الأعلى أو السوبريما . المحقق العام . جهود تركويمادا في تنظيم الديوان . اجراءات ديوان التحقيق . التبليغ وطرقه وآثاره . الأحبار المقررون . القبض على المتهم . سجون الديوان . المحاكمة واجراءاتها . الاحالة على التعذيب . أحكام التعذيب . تعليق الدون لورنتي . أنواع التعذيب واجراءاته . الاستجواب . الدفاع والمرافعات . الأحكام . تنفيذ العقوبة . حكم الاعدام . الاوتودافى . محاكمة الغائبين والمتوفين . أثر الأحكام . بطش الديوان وحصانة المحققين . موقف العرش . كمنيس وجهوده في اصلاح الديوان . شارل الخامس . موقفه من انديوان . بدء مطاردة المدجنين والموريسكيين . مهمة محاكم التحقيق . فكرة القضاء على الأمة الأندلسية . ديوان التحقيق يضطلع بهذه المهمة . اضطهاد الموريسكيين وريب الكنيسة في اخلاصهم . السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين . الثورة في البشرات . اجراءات القمع . ذرائع الاتهام . الشبهات الخطرة . الموريسكيون في غرناطة وبلنسية . استغاثة الموريسكيين بالسلطان بايزيد الثاني . وثيقة عربية عن أحوالهم وآلامهم .

قام ديوان التحقيق (The Inquisition) في مطاردة الموريسكيين بأعظم دور ، وترك في مأساتهم أعمق الأثر ، ومن ثم فانه يجدر بنا أن نتحدث عن تاريخ هذه المحاكم الشهيرة ، ونظمها وأعمالها الرهيبة .

ويرجع قيام محاكم التحقيق إلى فكرة الرقابة القديمة على العقيدة ، والتحقق من سلامتها ونقاؤها . وقد ظهرت فكرة التحقيق في أمر العقائد في الكنيسة الرومانية في عصر مبكر جداً ، وبدى بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر ، فكان البابا

يعهد إلى الأساقفة وإلى الآباء الدومنيكيين ، في تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم . وطبق هذا النظام منذ البداية في إيطاليا وألمانيا وفرنسا . وكان مندوبو البابويه يتجولون في مختلف الأنحاء ، لتقصي أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم ، وكانت تعقد لذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت هي النواة الأولى لمحاكم التحقيق ، تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة ، ثم تحل متى تمت مهمة مطاردتهم والقضاء عليهم .

ثم أنشئت بعد ذلك مراكز ثابتة لمحاكم التحقيق أقيم معظمها في أديار الآباء الدومنيكيين والفرنسيسكانيين . ولم تك ثمة في هذه العصور سجون خاصة أو مراكز خاصة لمحاكم التحقيق ، وإنما كان يتخذ من أي مكان صالح مركزاً أو سجنًا . وكان الأساقفة يتولون رئاسة هذه المحاكم ، ولهم سلطة مطلقة . وكانت التحقيقات والمرافعات تجري بطريقة سرية ، وتصدر الأحكام على المتهمين نهائية غير قابلة للطعن . وكان يسمح للنساء والصدية والعبيد بالشهادة ضد المتهم وليس له ، ويؤخذ الإقرار من المتهم بالخدعة والتعذيب . وكان التعذيب يعتبر طبقاً للقوانين الكنسية وسيلة غير مشروعة للاعتراف ، ولكن البابويه لم تجد بأساً من إقرار هذه الوسيلة . وكانت السجون التي يستعملها ديوان التحقيق مظلمة رهيبة ، يموت فيها الكثيرون من المرض والآلام النفسية . وكان السجناء يصفدون عادة بالأغلال الثقيلة . وكانت العقوبات الرئيسية هي السجن المؤبد والإعدام والمصادرة . وكانت السلطات الدينية والبابوية تحصل على أوفر نصيب من الأموال المصادرة ، وتحصل السلطات المدنية أيضاً على نصيبها منها . وألني ديوان التحقيق ميداناً خصباً لنشاطه في مطاردة الأليين (١) وغيرهم من الملاحدة الذين ظهروا منذ أوائل القرن الثالث عشر في جنوبي فرنسا . وفي عهد لويس التاسع ملك فرنسا وضع أول قانون ينظم اجراءات هذه المحاكم الكنسية الجديدة . وكان ديوان التحقيق في تلك العصور يصدر أيضاً أحكامه ضد الكتب المحرمة ، ويأمر بحرقها ، ومن ذلك أحكام صدرت باحراق التلمود وبعض كتب أرسطو وغيرها من كتب الفلسفة في العهد القديم .

ثم اتسع اختصاص محاكم التحقيق بمضى الزمن ، فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر ، والزيف في العقيدة ، بل تعدته إلى مطاردة السحر والسحرة والعرافة

(١) نسبة إلى « الي » وهي مدينة بجنوبي فرنسا ، وكانت من أهم مراكز هذه الطائفة المتعددة .

والعرافين ، وشبه هؤلاء بالكفرة . وجاء بعد ذلك دور اليهود ، فاتهموا بسب النصرانية ، وأخذت عليهم مزاولة الربا ، وتبعهم ديوان التحقيق بالمطاردة والعقاب . على أن الديوان لم ينس دائماً أن مهمته الأصلية تنحصر في مطاردة الكفر والزيف ، والمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقاها .

— ٢ —

تلك هي الظروف التي قامت فيها محاكم التحقيق الأولى ، في مختلف أنحاء أوروبا ، في إيطاليا وألمانيا وفرنسا . ويرجع قيام ديوان التحقيق الإسباني إلى نفس البواعث الدينية ، ولكنه نشأ مع ذلك نشأة مستقلة ، وأحاطت بقيامه ظروف خاصة .

وقد أنشئت محاكم التحقيق في مملكة أراجون منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ووضعت لها في سنة ١٢٤٢ م إجراءات جديدة ، كان لها فيما بعد أكبر الأثر في صوغ نظم ديوان التحقيق الإسباني . وعرف هذا الديوان الأرجوني بالديوان القديم ، وعكف حيناً على مطاردة طوائف الألبين ، وإخماد دعوتهم في أراجون ، ولم يلبث أن غدا سلطانه ، وغدت وسائله وإجراءاته مثار الرهبة والروع .

على أن هذه لم تكن سوى بداية محدودة المدى لنشاط ديوان التحقيق الإسباني . ذلك أن ظروف اسبانيا النصرانية في ذلك العصر ، واضطراب الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا المسلمة ، ورححان كفتها في ميدان الحرب والسياسة ، كانت كلها تذكي النزعة الصليبية ، التي كانت تجيش بها اسبانيا دائماً . وكانت الأمة الأندلسية قد استحوطت منذ القرن الرابع عشر ، إلى طوائف كبيرة من المدجنين في مهاد عزها القديم ، في قشتالة وأراجون ، ولم تبق منها سوى بقية أخيرة تحتشد في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي كان مصيرها المحتوم يلوح قوياً في الأفق . وكان تفوق اسبانيا النصرانية ونصرها المضطرد ، يذكي عوامل التعصب الديني الذي تبثه الكنيسة وترعاه ، وتتخذة اسبانيا الظافرة يومئذ شعارها المفضل في ميدان السياسة . وكانت موجة من التعصب تضطرم في هذا الوقت بالذات ، حول طوائف المنتصرين من اليهود ( Conversos ) ؛ وكان أولئك المحدثون في النصرانية قد سما شأنهم ووصل كثير منهم إلى المناصب الكنسية الكبيرة ، وإلى مجلس الملك ، وتبوأوا بأموالهم ونفوذهم مكانة قوية في الدولة

والمجتمع ، وكان أحرار الكنيسة ينظرون إليهم بعين الريب ، ويعتبرونهم شرّاً من اليهود الخالص أنفسهم ، ويتهمونهم بالإلحاد والزيف ، ومزاولة شعائرهم القديمة سرّاً . ولما تفاقم الإتهام من حولهم صدر في سنة ١٤٦٥ في عهد الملك هنرى الرابع ملك قشتالة أمر ملكى إلى الأساقفة ، بالاستقصاء والبحث في دوائهم ، وتبع هذا اللون من المروق والزيف ومعاقبة المارقين ، وتلا ذلك موجة من الإضطهاد اتخذت صورة المحاكمات الدينية ، وأحرق عدد من أولئك المنتصرين . ولكن قشتالة التى شغلت يومئذ بمشاكلها الداخلية ، لم تعن بأمر المنتصرين ولم تزعجهم . وهنا تدخل البابا سكستوس الرابع ، وحاول أن يدخل نظام التحقيق فى قشتالة ، فأرسل إليها مبعوثاً بابوياً مزوداً بكل السلطات ، للتحقيق والقبض على المارقين ومعاقبتهم . ولكن فرديناند وإيزابيلا وقفا فى وجه هذه المحاولة حرصاً على سلطانهما ، وحداً من سلطان الكنيسة ، وأغضت إيزابيلا مدى حين عن تحريض الأحرار ، على مطاردة الكبراء المنتسبين إلى أصل يهودى ، إذ كانت تثق بهم وبصداق نياتهم وغيرتهم فى خدمة الدولة والعرش .

على أن هذه المقاومة لم تلبث طويلاً . ذلك أن كل الظروف كانت تمهد لظفر السياسة الكنسية ، فلم تلبث أن غلبت مساعى الأحرار ، وقبل الملك إنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، ليضطلع بمثل المهام الخطيرة التى يضطلع بها فى أراجون . وهنا يقال إن الفضل فى إقناع الملكة إيزابيلا بتحقيق هذه الفكرة يرجع إلى القس توماس دى تركويمادا رئيس دير الآباء الدومنيكان فى سانت كروس بسقوية ، وقد كان معترف الملكة وله عليها نفوذ قوى ، فقيل إنه استطاع أن يحصل منها قبل اعتلائها العرش ، على وعد بأنها متى ظفرت بالملك ، فأنها تكرر حياتها لسحق الكفر وحماية الكتلكة ، وأنه كان أكثر العاملين على إقناعها بالموافقة على إنشاء ديوان التحقيق . وفى سنة ١٤٧٨ أرسل فرديناد وإيزابيلا سفيرهما إلى البابا ، للحصول على المرسوم البابوى ، وصدور المرسوم بالفعل فى نوفمبر من هذا العام ، بالتصريح بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة وتعيين المحققين « لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين » واتخذت الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم فى سبتمبر سنة ١٤٨٠ ، حيث ندب المحققون الثلاثة الأول ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى فى إشبيلية . وهكذا بدأ ديوان التحقيق الإشباني نشاطه المروع فى قشتالة .

وبدأ الديوان أعماله في إشبيلية بإصدار قرارات يحث فيها كل شخص أن يساعد الديوان ، في البحث عن الملحددين والكفرة ، وكل من في عقيدتهم زيغ ، وفي جمع الأدلة على إدانتهم ، وفي التبليغ عنهم بأية وسيلة ، وانقضت العاصفة بالأخص على اليهود المنتصرين ، وكانت منهم طائفة كبيرة في إشبيلية ؛ فلم يمض عام حتى بلغت ضحاياهم ألوفاً أحرق منهم عدد كبير ، وعوقب الكثيرون بالسجن والغرامات الفادحة ، والمصادرة والتجريد من الحقوق المدنية.

وحاول كثير من المنتصرين النجاة بالفرار إلى ضياع الأشراف ، فصدر أمر ملكي بتسليم الهاربين إلى محكمة التحقيق ، وهدد الأشراف بفقد وظائفهم والنفي من الكنيسة ، إذا تخلوا عن تنفيذ الأمر . وحاول بعض أكابر المنتصرين في الوقت نفسه تدبير مؤامرة ، لمقاومة محكمة التحقيق والفتك بأعضائها ، ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على كثير منهم ، وقضى بإعدام البعض حرقاً ، وبذا سمحت كل مقاومة لنشاط الديوان الجديد .

واتسع نشاط الديوان بسرعة ، واستصدر الملاك من البابا مرسوماً بتعيين سبعة من « المحققين » الجدد ( فبراير سنة ١٤٨٢ ) ، وأنشئت على أثر ذلك محاكم التحقيق في قرطبة وجيان وسقوية وطليلة وبلد الوليد ، وشمل نشاط الديوان سائر أنحاء المملكة الإسبانية ( قشتالة وأراجون ) .

وكان فرديناند وإيزابيلا يريان إلى أن تسبغ الصفة القومية على ديوان التحقيق ، وأن يكون سلطانه مستمداً من العرش ، أكثر مما هو مستمد من البابويه . ولتحقيق هذه الغاية روى أن ينظم الديوان على أسس جديدة . وكان الديوان قد غدا في الواقع أداة هامة مرهوبة الجانب ، ولا بد لهذه الأداة من سلطة عليا تقوم بالتوجيه والإرشاد ومن ثم فقد صدر المرسوم البابوي في سنة ١٤٨٣ بإنشاء مجلس أعلى لديوان التحقيق (Suprema) له اختصاص مطلق في كل ما يتعلق بشئون الدين ، ويتألف من أربعة أعضاء منهم الرئيس ، وأطلق على منصب الرئيس منصب المحقق العام Inquisitor-General وصدر المرسوم البابوي في أكتوبر سنة ١٤٨٣ بتعيين القس توماس دي تركويمادا معترف الملكين ، في هذا المنصب الخطير ، وخول في الوقت نفسه سلطة مطلقة في وضع دستور جديد للديوان المقدس .

وكان تركويمادا حبراً شديداً التعصب، وافر البأس والعزم، فبذل في تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه جهوداً عظيمة، وبث إليه روحاً من الصرامة. وكان جل غايته أن يجعل من ديوان التحقيق الإسباني أداة قومية تعمل وفقاً لحاجات إسبانيا، وقد وفق في تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد. وبدى بوضع دستور الديوان الجديد في سنة ١٤٨٥، على يد جمعية من المحققين العامين عقدت في إشبيلية، ووضعت طائفة من القرارات واللوائح، ثم عقدت بعد ذلك جمعية أخرى في بلد الوليد سنة ١٤٨٨ ووضعت عدة لوائح جديدة، وعقدت جمعية ثالثة في آبله سنة ١٤٩٨. وتولى المجلس الأعلى (السوبريما) بعد ذلك صياغة اللوائح وتنقيحها. وكان هذا التنظيم عظيم الأثر في تطور ديوان التحقيق الإسباني. ذلك أنه غداً من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة، وغداً سلطة يخافها أعظم العظماء في إسبانيا، ويرتجف لذكرها الفرد العادي، وأضحى نشاطها الرهيب، وقضاؤها المدمر، عنصراً بارزاً في التاريخ الإسباني، يقوم بدوره الفعال في دفع إسبانيا إلى شفا المنحدر، الذي لبثت تتردى في عمره زهاء ثلاثة قرون.

ولبث تركويمادا في منصب المحقق العام حتى توفي في سنة ١٤٩٨. وفي عهده اشتد نشاط محاكم التحقيق واتسعت أعمالها. وكان هذا القس المتعصب بالرغم من نقشفه، يعتبر بعد العرش أعظم سلطة في إسبانيا، ويعيش في قصور باذجة وله حرس كبير من الفرسان والمشاة. وكان من جراء شدته وعسفه أن ندب البابا سنة ١٤٩٤ إلى جانبه خمسة من المحققين العامين، يتمتع كل منهم بنفس سلطته. ولما توفي خلفه في منصب المحقق العام ديجوديزا أسقف جيان، واستمر في منصبه حتى سنة ١٥٠٧ م.

ونقدم الآن عرضاً موجزاً لإجراءات ديوان التحقيق. وسنرى أنها بأصولها وتفاصيلها أبعد ما يكون عن مبادئ المنطق والعدالة، وأشد ما يكون عسفاً وقسوة وهمجية.

تبدأ قضايا الديوان أو محاكمه الفرعية، بالتبليغ أو مايقوم مقامه، كورود عبارة في قضية منظورة تلتى شبهة على أحد ما. ولا فرق بين أن يكون التبليغ من شخص

معين أو يكون غفلاً . ففي الحالة الأولى يدعى المبلغ ويذكر أقواله وشهوده ، وتعتبر أقوال المبلغ وشهوده « تحقيقاً تمهيدياً » . كذلك يمكن التبليغ بواسطة « الإعراف » الذى يتلقاه القسس ، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الإشتباه فى العقائد ، وذلك بالرغم مما يقتضيه الإعراف من الكتمان . ويقسم المبلغون الشهود يميناً بالكتمان ، ولا توضح لهم الوقائع التى يسألون عنها بل يسألون بصفة عامة ، عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكي أو حقوق الديوان . ويقوم الديوان فى الوقت نفسه باجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده . ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدى على « الأحبار المقررين » ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجرمة الكفر أو تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها . وقرارهم يحدد الطريقة التى تتبع فى سير القضية . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضاً ، وكان معظم أولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين ، ومن ثم فقد كانت أخلاقهم وآراؤهم ، بل ذمتهم وشرفهم مثاراً للريب ، وكان رأيهم الإدانة دائماً إلا فى أحوال نادرة .

وعلى أثر صدور هذا التقرير ، يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجه إلى سجن الديوان السرى . وكانت سجون الديوان المخصصة لاعتقال المتهمين بالكفر أو الزيف ، وهى المعروفة بالسجون السرية ، غاية فى الشناعة والروعة ، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب ، عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجحازان . ويصفد المتهمون بالأغلال (١) . ويقول لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى إن أفضح ما فى أمر هذه السجون هو أن من يزج إليها ، يسقط فى الحال فى نظر الرأى العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أى سجن آخر مدنى أو دبنى ، وفيها يسقط فى غمار حزن لا يوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف إلى أى مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتغذية مدافع عنه ، غير أن لورنتى يبنى تصفيد المتهمين بالأغلال الثقيلة فى أرجلهم وأيديهم وأعناقهم ، ويقول إن هذا الإجراء لم يكن يتبع إلا فى أحوال نادرة (٢) . ويقول الدكتور

(١) Dr. Lea: History of the Inquisition of Spain, V. I. Chap. IV

(٢) Don S. A. Llorente: Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne

وهو مؤلف قدى ضخم ويمتاز بكون مؤلفه إسبانى وهو حبر خدم ديوان التحقيق أعواماً طويلة

لى : « كان القبض الذى يجريه ديوان التحقيق فى ذاته عقوبة خطيرة . ذلك أن أملاك السجين كلها تصادر وتصبى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنهى محاكمته . وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة ، لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره ، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة ، وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة » (١) ، .

ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات فى ثلاثة أيام متوالية ، تعرف بجلسات الرأى أو الإنذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ، ويوعد بالرفقة إذا قرر وفق ما ينسب إليه ، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر لأن «الديوان المقدس» لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ، وهى طريقة غادرة محيرة . فاذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الإجراءات وقضى عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق ، فانه لا ينجو من عقوبة الموت ، مهما كانت الوعود التى بذلت له بالرفقة والعفو .

فاذا أبى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الإتهام طبقاً لما ورد فى التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلة المقدمة من الركاكة والضعف . بيد أن أفضع ما يحتويه القرار هو إحالة المتهم على التعذيب ، وغالباً ما يطلب النائب هذه الإحالة ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه ، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب فى اعترافه . وتصدر المحكمة قرار التعذيب بمجموعة بهيئة غرفة مشورة . وكان قرار التعذيب فى العصور الأولى يصدر عقب الاشتباه والقبض فوراً . وقد استعمل التعذيب فى محاكم التحقيق للحصول على الاعتراف ، منذ منتصف القرن الثالث عشر . وكان التعذيب فى قشتالة إجراء يسوغه القضاء العادى ، وكان يعتبر وسيلة مشروعة لنيل الاعتراف ، فلم يكن غريباً أن يدمج ديوان التحقيق فى دستوره . وقد نوه كثير من المؤرخين بروعة الإجراءات والوسائل التى كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق فى توقيع العذاب . ويعلق عليها دون لورنتى بقوله : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التى كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين ، ولكنى أصرح أن

أحداً منهم لا يمكن أن يهجم بالمبالغة فيما روى . ولقد تلوت كثيراً من القضايا ، فارتجفت لها اشمزازاً وروعاً ، ولم أر في « المحققين » الذين التجأوا إلى تلك الوسيلة إلا رجالات بلغ جمودهم حد الوحشية » (١) . بيد أن مؤرخاً حديثاً لديوان التحقيق هو الدكتور لى يرى في هذه الأقوال مبالغة ، ويقول لنا إن ديوان التحقيق لم يكن في إجراءاته الخاصة بالتعذيب ، أكثر قسوة أو إرهاباً من القضاء العادى ، وإن ديوان التحقيق الرومانى كان في إجراءاته أشد قسوة وفضاعة من الديوان الإسبانى (٢) .

وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى ، تستعمل في محاكم التحقيق ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن إثاق المتهم فوق أداة تشبه السلم وربط ساقيه وذراعيه إليها ، مع خفض رأسه إلى أسفل ، ثم توضع في فمه من زلعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يخنق ، وقد يصل ما يتجرعه إلى عدة لترات . وتعذيب « الجاروكا » وهو عبارة عن ربط يدي المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ، ورفع وحفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ؛ وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام بالآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل وفسخ الفك ، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة .

ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه . ولما كان التعذيب يعتبر خطراً لا تؤمن عواقبه نظراً لاختلاف المتهمين في قوة البنية والاحتمال المادى والعقلى ، فإنه لم يك ثمة قواعد معينة تتبع في إجراء التعذيب ، بل كان الأمر يترك لتقدير القضاة وحكمتهم وضائرهم (٣) . ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأخبار المحققون ، والطبيب إذا اقتضى الأمر ، ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولا يستل ليقرر وقائع معينة ، بل يعذب ليقرر ما شاء ، ويمكن الطعن في القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى ( السوبريما ) إلا في أحوال استثنائية . ولكن الطعن لا يقبل ولا ينظر ، حيثما كان القانون صريحاً في وجوب إجراء التعذيب . وقد يأمر الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى

Llörrente: ibid. (١)

Dr Lea : The History of the Inquisition ; V. III. Ch. VII. (٢)

Dr Lea : ibid; V. III; p. 22 (٣)

عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه ، فاذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً ، بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة ، كف عن تعذيبه ، وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب وأصر على الإنكار ، لم يفده ذلك شيئاً ، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة ، ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار . ويجب أن يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حر يقره في اليوم التالي ، وذلك حتى يؤكد صحة الإقرار فإذا أنكر أو غير شيئاً أعيد إلى التعذيب .

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقاً دائماً إلى قاعة الجلسة ، ليجيب عن التهم التي توجه إليه لأول مرة ، ويسأل عند تلاوة كل تهمة عن جوابه عنها مباشرة ، ثم يسأل عن دفاعه . وكان مبدأ الدفاع أمراً مقررراً من الوجهة النظرية ، فان كان له دفاع ، اختارت المحكمة له محامياً من المقيدين في سجل الديوان للدفاع عنه ، وقد يسمح للمتهم باختيار محام من الخارج في بعض الأحوال الاستثنائية ؛ ويقسم المحامي اليمين بأن يؤدي مهمته بأمانة ، وألا يعرقل الإجراءات بسوء نية ، وأن يتخلى عن موكله إذا تبين له في أية مرحلة من مراحل الدعوى ، أن الحق ليس في جانبه . على أن الدفاع لم يكن في الغالب سوى ضرب من السخرية ، ولم يكن عملاً مأمون العاقبة ، ولم يكن يسمح للمحامي أن يطلع على أوراق القضية الأصلية ، أو يتصل بالمتهم على انفراد ، بل تقدم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الإحالة وقرار الإتهام . وكان المحامي الذي يبدى في تأدية مهمته غير خاصة ، يخاطر بأن يقع تحت سخط الديوان .

وبعد المرافعة واستجواب المتهم ، تحال القضية على الأحرار المقررين ليبدوا فيها رأيهم من جديد . وكانت هذه خطوة حاسمة في الواقع ، لأنها تمهيد إلى الحكم النهائي . ويصدر الأحرار المقررون قرارهم ، وقلما كان يختلف عن القرار الأول . فاذا كان الحكم بالإدانة ، كان للمتهم فرصة الإستئناف أمام المجلس الأعلى ( السوبريما ) . بيد أنها كانت على الأغلب فرصة خائبة ، إذ قلما كان المجلس الأعلى ينقض حكماً من الأحكام . وكان للمتهم أيضاً أن يلتمس العفو من الكرسي الرسولي . وكانت الخزنة البابوية تغنم من هذه الإلتماسات أموالاً طائلة ، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى ذوى الغنى الطائل .

وقلما كان يصدر حكم البراءة أو « الإقالة » ، إذ أن أقل شك في براءة المتهم براءة مطلقة . كان يوجب اعتباره مذنباً من النوع الخفيف de Levi ، وعندئذ تصدر عليه عقوبات تناسب مع ذنبه ، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر وفقاً لإجراءات معينة . وإذا قضى بالبراءة وهو ما يندر وقوعه أطلق سراح المتهم . وأعطيت له شهادة لطهارته من الذنوب ، وهي كل ما يعرض به ، عمسا أصابه في شخصه وفي شرفه وماله ، من ضروب الأذى والألم .

وأما إذا قضى بالإدانة فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ . وهو إجراء من أشنع الإجراءات الجنائية التي عرفت ، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن يدري مصيره الحقيقي ، ويجوز رسوم الإيمان « الأوتو دافى » Auto-da-fé وهي الرسوم الدينية التي تسبق التنفيذ ، وخالصتها أن يلبس الثوب المقدس ، ويوضع في عنقه حبل وفي يده شمعة ، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجوز رسوم التوبة ، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ ، وهناك يتلى عليه الحكم لأول مرة . وقد يكون الحكم في حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة أو بالإعدام حرقاً في حالة « الكفر الصريح » ، وقد يكون في حالة الذنوب الخفيفة ، بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة ، وهو ما يسمى حكم « التوفيق » . وكانت أحكام الإعدام هي الغالبة في عصور الديوان الأولى في قضايا الكفر . وكان التنفيذ يقع في ساحات المدن الكبيرة ، وفي احتفال رسمي يشهده الأعيان والكبراء بأثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك . وكان يقع على الأغلب جملة فينفذ حكم الحرق في عدد من المحكوم عليهم ، قد يبلغ العشرات أحياناً ، وينتظم الضحايا في موكب ( الأوتو دافى ) Auto-da-fé التي اشتهرت في اسبانيا منذ القرن الخامس عشر ، والتي كانت بالرغم من مناظرها الرهيبة من الحفلات العامة ، التي تهرع لشهودها جموع الشعب . ومما يذكر في ذلك ، أن فوديناوند الكاثوليكي كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره أن يشهده حفلات الإحراق ( الأوتودافى ) وكان يمدح الأعيان المحققين كلما نظمت حفلة منها (١) .

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً ، ييث اليأس في النفوس ، وكان الأمر يترك لهوى القضاة في تحديد مواعيد دعوة المتهم ، والسير بإجراءات الدعوى ، وكانت

الإجراءات والمرافعات تستغرق وقتاً طويلاً ، وقد تستغرق الأعوام أحياناً ، وقد يموت المتهم في سجنه قبل أن يصدر الحكم في قضيته .

وكان دستور ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين . وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء ، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم ، لتحرق في موكب الأوتو دافى . وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيقضى بجرائمهم من تولى الوظائف العامة ، وامتهان بعض المهن الخاصة ، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليه (١) .

— ٥ —

هذا استعراض موجز لإجراءات تلك المحاكم الكنسية الشهيرة ، التي سوت بقضائها المروع صحف التاريخ الإسباني زهاء ثلاثة قرون .

وقد بث ديوان التحقيق منذ قيامه بقضائه وأساليبه ، حوله جواً من الرهبة والروع . ولما ذاع بطشه وعسفه ، فر كثير من النصارى المحدثين من يهود ومسلمين ، حتى اضطرت الحكومة إلى أن تصدر في سنة ١٥٠٢ ، قراراً يحرم على ربان أى سفينة وأى تاجر ، أن ينقل معه نصرانياً محدثاً دون ترخيص خاص ، وقبض بهذه الصورة على كثيرين من النصارى المحدثين ، في مختلف الثغور الإسبانية ، وأحيلوا إلى محاكم التحقيق .

وكان أعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة ، وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة ، وتحمى أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة . وكان من جراء هذه السلطة المطلقة ، وهذا التحلل من كل مسئولية ، أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة ، والقبض على الأبرياء دون حرج ، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامى ، لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها للملء جيوبهم ، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد ، لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته ، وكانت الخزينة الماكية ذاتها تغنم مئات الألوف

(١) رجعت في معظم ما ورد عن دستور ديوان التحقيق واجراءاته إلى كتابى « ديوان التحقيق

من هذا المورد ، هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة في السجن بجوعاً (١) . وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً أن يسيطر حكم الأرهاب في بعض المناطق ، وهذا ما حدث في قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو الذي يعتبر من أشد المحققين قسوة وإجراماً . ففي عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات ، وتعالص الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفظيع ، الذي يجري باسم الديوان المقدس ، وفي ظله ، والذي يصم اسم الديوان والحكومة ، واستغاث كبراء قرطبة بالملك ، وجرت في الموضوع تحقيقات طويلة انتهت بالقبض على المحقق العام وعزله (٢) .

وكان العرش يعلم بأمر هذا الآثام المثيرة ، التي تصم سمعة الديوان والمحققين . ولا يستطيع دفعاً لها ، لما بلغه الديوان من السلطان الذي لا يناهضه سلطان آخر . ولأن العرش كان يرى فيه في الوقت نفسه ، أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين . وفي الوصية التي تركها فرديناند الكاثوليكي عند وفاته في يناير سنة ١٥١٦ ، لحفيده شارل الخامس ، ما يلقي ضياء على هذه الحقائق . ففيها بحث على حماية الكتلركة والكنيسة ، واختيار المحققين ذوي الضمائر الذين يخشون الله ، لكي يعملوا في عدل وحزم ، لخدمة الله وتوطيد الدين الكاثوليكي ، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد (٣) .

ولما توفي فرديناند ، كان المحقق العام هو الكردينال كنييس مطران طليطلة ، الذي أبدى من الحماسة في مطاردة المسلمين وتنصيرهم ، ما سبقت الإشارة إليه . وقد حاول كنييس أن يطهر قضاء الديوان وسمعته ، فعزل كثيراً من المحققين الذين لا يرغب فيهم ، ولكنه لم يعيش طويلاً ليتم برنامجه في الإصلاح ، فعادت المساوىء القديمة أشد مما كانت ، وسار الديوان في قضائه المدمر وأساليبه المثيرة ، لا يلوى على شيء . ولما جلس شارل الخامس على العرش كتب إليه مجلس قشتالة يقول : إن سلام المملكة وتوطيد سلطانه ، يتوقفان على تأييده لديوان التحقيق . ولم يرشارل بعد فترة من التردد ، إلا أن ينزل عند هذا النصيح ، وأن يفسح الطريق لسلطان

(١) Lea: *ibid*; V. I. p. 190 - 192

(٢) Dr Lea: *ibid*: V. I. p. 210

(٣) Dr Lea: *ibid*; cit. Mariana; V. I. p. 215

الديوان القاهر ، وذهبت كل الجهود للحد من عسف الديوان وعيئه سدى ، وتوطد سلطان الديوان بقشتالة مدى قرون ثلاثة ، كانت في الواقع أخطر ما في حياة الشعب الإسباني (١) .

— ٦ —

وقد رأينا كيف أنشئ ديوان التحقيق الإسباني في الأصل ، لمطاردة الكفر وحماية الكتلثة من شبه المروق والزيف ، وكان إنشاؤه في قشتالة قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وكان اليهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن ، في ظل الحكم الإسلامي ، أول ضحايا سياسية الإرهاب والمخواتي رسمتها اسبانيا الجديدة . ذلك أنهم ما كادوا ينتقلون إلى الحكم الجديد ، حتى شهرت عليهم السياسة الإسبانية حربها الصليبية ، وأمروا باعتراف النصرانية ، وفرض النبي والمصادرة عقوبة للمخالفين ، فأذعن كثير منهم إشفاقاً على الوطن والمال ، وهلك كثير منهم في سجون الديوان المقدس ومحارقة ، أو شردوا في مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان . بل لم ينج المتصرون منهم ، من المطاردة والإرهاب لأقل الشبه حسباً قدمنا . ولقيت طوائف المدجنين من بقايا الأمة الأندلسية ، وهي التي بقيت في ظل الحكم النصراني ، نفس المصير الحزن . وبدأ ديوان التحقيق نشاطه في قشتالة منذ سنة ١٤٨٠ ، قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وأقيمت محارقه الأولى في إشبيلية عاصمة المملكة . فلما سقطت غرناطة ، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الإسلامية في الأندلس ، ووقع ملايين المسلمين في قبضة اسبانيا النصرانية ، ولما أكره المسلمون على التنصير ، واستحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طوائف الموريسكيين حسباً أسلفنا ، ألقي ديوان التحقيق في هذا المجتمع النصراني المحدث أخصب ميدان لنشاطه ، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية في تحقيق غايتها البعيدة . ذلك أن هذه المحاكم الشهيرة كانت تضطلع بمهمة مزدوجة دينية وسياسية معاً ، فكانت تعمل باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة ، وكان للسياسة الإسبانية بعد ظفرها النهائي باخضاع الأمة الأندلسية أمنية أخطر وأبعد مدى ، هي القضاء على بقايا هذه الأمة المسلمة ، وسحق دينها وكل خواصها الجنسية والاجتماعية ، وإدماجها في المجتمع النصراني . ولم تشأ السياسة

Lea: ibid; V. I. p. 250 (١)

الإسبانية أن تترك تحقيق هذه الغاية لفعل الزمن والتطور التاريخي . بل رأت نزولا على وحي الكنيسة وتوجيهها المباشر ، أن تعجل باجراءات التنصير والقمع ، وأن تذهب في ذلك إلى حدود من الإسراف والغلو ، هي التي أسبغت على مأساة الموريسكيين أو العرب المنتصرين صبغتها المفجعة ، كما أسبغت على السياسة الإسبانية المعاصرة وصمة عار ، لم يمحها إلى اليوم كالأجيال والعصور .

وقد اضطلع ديوان التحقيق الإسباني بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية ، التي أريد بها تنفيذ حكم الإعدام في أمة بأسرها ، وأخضعت غرناطة لقضاء ديوان التحقيق منذ سنة ١٤٩٩ ، أعنى منذ أكره المسلمون على التنصير ، ولكنها جعلت من اختصاص محكمة التحقيق في قرطبة ، وهكذا بدأ الديوان المقدس أعماله في غرناطة ، بحماسة يذكها احتشاد الضحايا من حوله . ولم تغفل الرواية الإسلامية أن تشير إلى محارق ديوان التحقيق ، أو إحراق المسلمين بتهمة المروق أو الزيغ ، ولم يجد المسلمون الذين آثروا البقاء في الوطن القديم وأكروهوا على التنصير واعتناق الدين الجديد ، ملاذاً أو عاصماً من الإضطهاد والمطاردة . ذلك أن الموريسكيين أو العرب المنتصرين لبثوا دائماً موضع البغض والريب ، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها ، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن باخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ، وترى فيهم دائماً منافقين مارقين . وهكذا كانت السياسة الإسبانية ، كما كانت الكنيسة الإسبانية ، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين ، وإنما كانت ترمى إلى إبادتهم ، ومحو آثارهم ودينهم وحضارتهم وكل ذكرياتهم . ومن ثم فقد لبث الموريسكيون ، شغلا شاغلا للكنيسة وللسياسة الإسبانية ، فهم عنصر بغيض في المجتمع الإسباني ، وهم خطر على الدولة وعلى الوطن ، وهم بالرغم من ردتهم مازالوا خونة مارقين ، ومازالوا أعداء للدين في سريرتهم . وكان يذكي هذا البغض والتحامل ضد الموريسكيين كل تدمر من جانبهم . فلما دفعهم اليأس إلى الثورة في مفاوز البشرات ، ولما آنتت السياسة الإسبانية أن هذه البقية الممزقة من الأمة الأندلسية القديمة ، مازالت تجيش برمق من الحياة والكرامة ، رأت أن تضاعف إجراءات القمع والمطاردة ، ضد هذا الشعب المهيبض الأعزل ، حتى لا ينبض بالحياة مرة أخرى .

وكانت ثورة البشترات نذير فورة جديدة ، من هجرة الموريسكيين إلى ما وراء البحر ، فجازت منهم إلى إفريقية جموع عظيمة كما قدمنا ، ولكن الكثرة الغالبة منهم بقيت في الوطن القديم ، هدفاً للاضطهاد المنظم ، والقمع الذريع المدنى والدينى ؛ فالى جانب الأوامر الملكية بمنع الهجرة ، وحظر التصرف فى الأملاك أو حمل السلاح وغيرها من القوانين المقيدة للحقوق والحريات ، كان ديوان التحقيق من جانبه ، يشدد الوطأة على الموريسكيين ، ويرقب كل حركاتهم وسكناتهم ، ويغمرهم بشكوكه وزيبه ، ويتخذ من أقل الأمور والمصادفات ذرائع لاتهامهم بالكفر والزيف ، ومعاقبتهم بأشد العقوبات وأبلغها . وقد نقل إلينا الدون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني ، وثيقة من أعرب الوثائق القضائية ، تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المنتصرين ، فى تهمة الكفر والمروق ، وإليك ما ورد فى تلك الوثيقة الغريبة :

« يعتبر الموريسكى أو العربى المنتصر قد عاد إلى الإسلام ، إذا امتدح دين محمد ، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً ، وليس إلاً رسولا ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع ، بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة ، وهو يعتقد أن ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق قائلاً بسم الله ، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها ، أو يرفض أكل تلك التى لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة ، أو يحتن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته فى اتباع هذه العادة ، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن ، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر ( السحور ) ، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة ، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سورا من القرآن ، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية ، أو ينشد الأغاني العربية ، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن يستعمل النساء الخضاب فى أيديهن أو شعورهن ، أو يتبع

قواعد محمد الخمس ، أو يملس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد ، أو يغسل الموتى ويكفّنهم في أثواب جديدة ، أو يدفّنهم في أرض بكر ، أو يغطّي قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعاً إياه بالنبي ورسول الله ، أو يقول إن الكعبة أول معابد الله ، أو يقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس ، أو إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين . . الخ» (١)

كانت هذه الشبه وأمثالها ، تتخذ ذريعة للتشكيل بالموريسكيين ، بالرغم من تنصرهم وانتمائهم إلى دين سادتهم الجدد . ومن الطبيعي أن يكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وكانت قد بقيت منهم جماعات كبيرة في غرناطة وبلنسية وغيرها ، يعيشون في نعمة من الخبز الدائم ، وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء ، لأقل الشبه والوشايات . ولقد كان الإسراف في مطاردة المسلمين والموريسكيين ، نذير السخط والثورة ، ولكن الثورة أخمدت ، ولم تعدل السياسة الإسبانية عن مسلكها ، وضاعفت محاكم التحقيق إجراءات القمع والتشكيل . وقد انتهت إلينا عن تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الموريسكيين وثيقة عربية ذات أهمية خاصة ، كتبها فيما يظهر أندلسي متنصر ( موريسكي ) إلى بايزيد الثاني سلطان الترك العثمانيين ، يستغيث به ويستصرخه ، لنصرة إخوانه العرب المنتصرين ، ويصف له في شعر ركيك ولكن قوى التعبير ، ماتزله اسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المنتصرين من عسف ديوان التحقيق ، ورائع مطاردته وعقوباته . وإليك بعض ما ورد في تلك القصيدة المؤثرة ، في وصف أنواع الاضطهاد والعسف ، التي نزلت بالعرب المنتصرين ، وذلك بعد ديباجة نثرية قصيرة ، وديباجة شعرية طويلة في تحية السلطان بايزيد :

|                              |                             |
|------------------------------|-----------------------------|
| فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم    | بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة |
| وخان عهداً كان قد غرنا بها   | ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة     |
| وكل كتاب كان في أمر ديننا    | ففي النار القوة بهزء وحقرة  |
| ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم | ولا مصحفاً يخلى به للقراءة  |

ومن صام أو صلى ويعلم حاله  
ومن لم يحيى منا لموضع كفرهم  
ويلطم خسيه ويأخذ ماله  
وفي رمضان يفسدون صيامنا  
وقد أمرونا أن نسب نبينا  
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه  
وعاقبهم حكاهم وولاتهم  
وقد بدلت أسماءنا وتحولت  
فأهاً على تبديل دين محمد  
وأهاً على تلك الصوامع علقت  
وأهاً على تلك البلاد وحسبها  
وصارت لعبادة الصليب معاقلاً  
وصرنا عبيداً لا أسارى نفتدى  
فلو أبصرت عينك ما صار حالنا  
فياويلنا يابؤس ما قد أصابنا  
ففي النار يلقوه على كل حالة  
يعاقبه اللباط شر العقوبة  
ويجعله في السجن في سوء حالة  
بأكل وشرب مرة بعد مرة  
ولا نذكره في رخاء وشدة  
فأدركتهم منهم ألم المضرة  
بضرب وتغريم وسجن وذلة  
بغير رضا منا وغير إرادة  
بدين كلاب الروم شر البرية  
نواقيسهم بها نظير الشهادة  
لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة  
وقد آمنوا فيها وقوع الإغارة  
ولا مسلمين نطقهم بالشهادة  
إليه بلحادث بالدموع الغزيرة  
من الضر والبالوى وثوب المذلة (١)

وهذه الأبيات تم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة ، في تتبع أعمال السياسة الإسبانية ، لمطاردة العرب المنتصرين ، وفي وصف إجراءات محاكم التحقيق وعقوباتها . والظاهر أن صاحبها كان من الكبراء المتصلين بالشئون العامة . والمرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان بايزيد الثاني ، عقب ثورة البشرا وما تلاها من إجراءات القمع المشددة ضد العرب المنتصرين ، وذلك حوالى سنة ١٥٠٥ ، وقد توفى السلطان بايزيد الثاني سنة ١٥١٢ ، فلا بد أن تكون الرسالة قد وجهت إليه قبل ذلك . ونحن نعرف أنها لم تكن أول رسالة من نوعها ، وجهها مسلمو الأندلس والعرب المنتصرون إلى قصور قسطنطينية ومصر والمغرب ، فقد أشرنا فيما تقدم إلى سفارة مولاى الزغل سلطان غرناطة إلى بلاط مصر وبلاط قسطنطينية ، يستغيث بهما ويستصرخهما

(١) أورد لنا المقرئ في أزهار الرياض تلك القصيدة بأكملها ، وهي طويلة في نحو مائة

لإنجاده، وإلى ما قام به بلاط مصر من توجيه سفارته إلى فرديناند الخامس، يحذر من المضي في إرهاب المسلمين، وينذره باضطهاد النصارى الذين يعيشون في المملكة المصرية، وما كان من تكرار نذيره إلى ملك اسبانيا حينما اشتدت وطأة التنصير على مسلمى الأندلس؛ ولكن تدخل مصر وقسطنطينية على هذا النحو لم يغن شيئاً، وهذا ما يشير إليه صاحب القصيدة المذكورة في قوله مخاطباً السلطان بايزيد:

|                             |                              |
|-----------------------------|------------------------------|
| وقد بلغ المكتوب منكم إليهم  | فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة  |
| وما زادهم إلا اعتداء وجرأة  | علينا وإقداماً بكل مساءة     |
| وقد بلغت إرسال مصر إليهم    | وما نالهم غدر وهتك حرمة      |
| وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا | رضينا بدين الكفر من غير قهرة |
| أقد كذبوا في قولهم وكلامهم  | علينا بهذا القول أكبر فرية   |
| ولكن خوف القتل والحرق ردنا  | نقول كما قالوه من غير نية    |

وقد كانت السياسة الإسبانية تتخذ من هذه الرسائل، التي يوجهها العرب المنتصرون إلى إخوانهم المسلمين فيما وراء البحر، كلما تفاقمت آلامهم ومحنهم، ذريعة للاشتداد في مطاردتهم، واعتبارهم خطراً على سلامة الدولة، لأنهم يأتمرون بها مع ملوك الدول الإسلامية أعداء اسبانيا النصرانية.

# الفصل الثالث

## ذروة الاضطهاد وثورة الموريسكيين

نظرة اسبانيا الى الموريسكيين . سياسة الرفق في عهد شارل الخامس .  
عود الاضطهاد . قرار المحكمة الملكية في ظلامة المسلمين . تعليق المؤرخ كوندى .  
ثورة المسلمين في سر قسطة وبلنسية . تنصير المسلمين في أراجون . القوانين  
والقرارات المرهقة . مساعي الموريسكيين في بلنسية وغرناطة . تحريم الهجرة  
الى النغور . التردد بين الشدة والرفق في عهد شارل الخامس . ولده فيليب  
الثاني . التنصير يعم الموريسكيين . تحريض الكنيسة لفيليب الثاني . تحريم  
السلاح على الموريسكيين . تحريم استعمال اللغة العربية والثياب العربية .  
اعلان القانون في غرناطة . سحق الموريسكيين . فشل السعى الى التخفيف .  
اضطراب الخواطر في غرناطة . العزم على الثورة . خطة ابن فرج لاضرامها  
قصيدة عربية في وصف آلام الموريسكيين . استغاثتهم بأمرأ المغرب . نذير  
الانفجار . محاولة ابن فرج لاثارة غرناطة . ارتداده الى الهضاب الجنوبية .  
انتشار الثورة . فتك الموريسكيين بالنصارى . فرناندو دى فالور أو محمد  
ابن أمية سلطان الموريسكيين . الفتك بالنصارى في منطقة البشرات ، أهبة الاسبان  
لقمع الثورة . مسير المكين منديخار لمقاتلة الموريسكيين . هزيمة الموريسكيين  
وفرار محمد بن أمية . معركة دامية أخرى . الفتك بالموريسكيين في غرناطة .  
عود محمد بن أمية . استغاثته بسلطان الترك . تشريد الموريسكيين في  
البيازين . مصرع محمد ابن أمية . ابن عبو أو مولاي عبد الله يخلفه في الرياسة .  
غارات الموريسكيين على أجواز غرناطة . تعيين دون خوان قائدا عاما لغرناطة . مسيره  
الى مقاتلة الثوار . المعارك الطاحنة بين الفريقين . الحكومة الاسبانية تجنح الى  
اللين . محاولات الاسبان لعقد الصلح . تصميم مولاي عبد الله على القتال .  
اجتياح الاسبان للمناطق الثائرة . فيليب الثاني يصدر قرارا بنفى الموريسكيين .  
الحوادث الدموية . قوانين جديدة مرهقة . مصرع مولاي عبد الله . انهيار الثورة  
المهوسكة .

لبث الموريسكيون في عهد فرديناند الخامس زهاء عشرين عاماً ، يترأحون  
بين الرجاء واليأس ، ويرزحون تحت نحر المطاردة المنظمة ، وكان هذا الشعب المهيب  
الذي أدخل قسراً في حظيرة النصرانية ، والذي أنكرته مع ذلك اسبانيا سيدته الحديدية ،  
وأنكرته الكنيسة التي عملت على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الحديدية ،  
وأن يتقبل مصيره المنكود باباء وجليد . ولكن اسبانيا النصرانية ، لبثت ترى في هذه

البقية الباقية من الأمة الأندلسية ، عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيب الأعزل ، الذي أحكمت أغلالها في عنقه ، ما يزال مصدر خطر دائم على سلامتها وطمأنيتها ، ومن ثم كان هذا الإمعان في مطاردته وإرهاقه ، بمختلف الفروض والقيود والمغارم ، وفي انتهاك عواطفه وحرماته ، وفي تعذيبه وتشريده ، وكان يلوح أن ليس لهذا الإستشهاد الطويل المؤثر من آخر سوى الفناء ذاته .

فلما توفي فرديناند الكاثوليكي (١) وخلفه حفيده شارل الخامس (الإمبراطور شارلكان) سنة ١٥١٦ ، هبت على الموريسكيين ريح جديدة من الأمل ، ورجوا أن يكون العهد الجديد خيراً من سابقه . وأبدى الملك الجديد في الواقع شيئاً من اللين والتسامح ، نحو المسلمين والموريسكيين ، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال في مطاردتهم ، وكفت عن التعرض لهم في أراجون بسعى النبلاء والسادة ، الذين يعمل المسلمون في ضياعهم ؛ ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام ، وعادت العناصر الرجعية في البلاط وفي الكنيسة ، فغلبت كلمتها ؛ وصدر مرسوم جديد في ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه ، وإخراج كل من أبي النصرانية من اسبانيا ، وأن يعاقب كل مسلم أبي التنصير أو الخروج في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، وأن تقلب جميع المساجد الباقية إلى كنائس .

عندئذ استغاث المسلمون بالإمبراطور ، واتمسوا عدله وحمانيته ، على يد وفد منهم بعثوه إلى مدريد ، ليشرح للمليك ظلامتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦) . فندب الإمبراطور محكمة كبرى من النواب والأجبار والقادة وقضاة التحقيق ، برياسة المحقق العام لتتظفر في ظلامته المسلمين ، ولتقرر بالأخص ما إذا كان التنصير الذي وقع على المسلمين بالإكراه ، يعتبر صحيحاً ملزماً ، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت ، أم يطبق القرار الجديد عليهم كمسلمين . وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ، بأن التنصير الذي وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة ، لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه ، فكانوا بذلك أحراراً في قبوله . ويعلق المؤرخ كوندى وهو إسباني نصراني على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذي فرضه

---

(١) لما توفي فرديناند دفن في غرناطة في قبر ضخم ، ودفنت من قبله زوجته الملكة إيزابيلا أيضاً في غرناطة ، وذلك تنويهاً بظفر اسبانيا وظفر النصرانية .

القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها» (١) . وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكي بأن يرغم سائر المسلمين الذين نصرُوا كرهاً ، على البقاء في اسبانيا ، باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فاذا ارتدوا عن النصرانية ، قضى عليهم بالموت والمصادرة ، وقضى الأمر في الوقت نفسه بأن تحول جميع المساجد الباقية في الحال إلى كنائس .

فكان لهذه القرارات لدى المسلمين أسوأ وقع ، وما لبثت الثورة أن نشبت في معظم الأنحاء التي يقطنها المسلمون ، في أحواز سرقسطة وفي منطقة بلنسية وغيرهما ، وأخذت هذه الثورات المحلية الضئيلة تبعاً . ولكن بلنسية كان لها شأن آخر . ذلك أنها كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين ، يبلغ زهاء سبعة وعشرين ألف أسرة (٢) ، وكان وقوعها على البحر يمهد للمسلمين سبل الإتصال باخوانهم في المغرب ، ومن ثم فقد كانت دائماً في طليعة المناطق الثائرة ، وكانت الحكومة الإسبانية تنظر إليها باهتمام خاص ؛ فلما فرض التنصير العام أبدي المسلمون في بلنسية مقاومة عنيفة ، وبلحقت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية « بناجوازيل » ( بنى وزير ) واضطرت الحكومة أن تجرد عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع ، وأرغم المسلمون في النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان على أن ينصروا ، وعدلت عقوبة الرق إلى الغرامة (٣) .

وفي باقي ولايات أراجون ، أشفق السادة والنبلاء على مصالحتهم وضياعهم من التلف ، إذا اضطهد المسلمون ومزقوا كما حدث في بلنسية ، فأوضحوا للإمبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدوا له أن المسلمين في أراجون جماعة هادئة عاملة ذلولة ، لم ترتكب جرماً قط ، ولم تبدر منهم خطيئة دينية أو سياسية ، ومعظمهم زراع في أراضي الملك والسادة ، ومنهم صناع مهرة ، فأخرجهم من أراجون خسارة فادحة ، ولا داعي لإرغامهم على التنصير ، لأن ذلك لا يعني إخلاصهم للدين الجديد ،

(١) كوندى : الترجمة الإنجليزية ج ٣ .

(٢) الدون لورنتي في كتابه السالف الذكر .

(٣) Dr Lea : The Moriscos ; p. 91 & 92

ومن الخير أن يتركوا في سلام ؛ ولكن مساعي السادة في هذا السبيل ذهبت عبثاً ، وأصر الإمبراطور على أن يطبق التشريع الجديد على جميع مسلمي أراجون ، وأصدر أوامره إلى ديوان التحقيق أن يقوم بتلك المهمة ، فأذعن المسلمون إلى التنصير راغمين ، وتم بذلك تنصيرهم جميعاً ( سنة ١٥٢٦ ) .



شارل الخامس (الإمبراطور شارلكان)

وتوالت الأوامر والقوانين المرهقة ، فصدر قانون يحظر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلى والأحجار الكريمة ، وحتم على كل مسلم بقي على دينه أن يحمل شارة زرقاء في قبعته ، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً وإلا عوقب المخالفون بالجلد ، وأمروا بأن يسجدوا في الشوارع متى مر كبير الأحرار . واستصدر أسقف بلنسية أمراً يحتم على الموريسكيين في غرناطة أن يغيروا ملابسهم العربية ، وأن يتخذوا القشتالية لغة لهم ، وألا يتخاطبوا علناً بلغتهم العربية ، وشدت في تنفيذ هذا الأمر المرهق ، وأنشئت في غرناطة محكمة تحقيق خاصة لمعاقبة المخالفين ، واشتدت

المطاردة في جميع الأنحاء . وفي بلنسية صدر قرار بأن يغادر المسلمون الأراضي الإسبانية من طريق الشمال ، وحظر على السادة أن يبقوهم في ضياعهم وإلا عوقبوا بالغرامة الفادحة ، فعاد المسلمون في بلنسية إلى الثورة ، وقاوموا جند الحكومة حيناً ، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدت ، وتقدم المسلمون خاضعين على يد وفد منهم مثل في البلاط ، يعرضون الدخول في النصرانية ، على أن تحقق لهم بعض المطالب والظروف المخففة ، فلا يمتد إليهم قضاء ديوان التحقيق ، وأن يحتفظوا بلغتهم وبعض حقوقهم في الزواج والميراث طبقاً لتقاليدهم ، وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفيض الضرائب . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم سائر الأوامر ، التي طبقت على الموريسكيين في غرناطة وغيرها ، وأن يسمح لهم بالاحتفاظ بلغتهم وأزيائهم مدى عشرة أعوام فقط ، وأن يمنحوا بعض الإمتيازات فيما يتعلق بالزواج ودفع الضرائب ، وكانت هذه المنح أفضل ما يمكن نيله في هذه الظروف ، فأقبل المسلمون في منطقة بلنسية على التنصير أفواجاً ، عدا أقلية صغيرة آثرت الثورة ، ومزقتها جند الإمبراطور بعد قليل ، وألفت محاكم التحقيق غير بعيد ، في مجتمع الموريسكيين في بلنسية ميداناً خصباً لنشاطها .

وحذا الموريسكيون في غرناطة حذو إخوانهم في بلنسية ، فسعوا لدى البلاط في تخفيف الأوامر والقوانين المرهقة التي فرضت عليهم ، وانهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة ، فقدموا إليه على يد ثلاثة من أكابرهم ، هم الدون فرديناند بنجاس والدون ميشيل داراجون وديجولوز بنشارا ، وهم من سلالة أمراء غرناطة الذين نصرروا منذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ظلامتهم ، وما يعانونه من آلام المطاردة والإرهاق المستمر ، فندب الإمبراطور لجنة محلية للتحقيق في أمر الموريسكيين ، وصدرت عدة أوامر ملكية بالعفو عن الموريسكيين فيما تقدم من الذنوب ، فاذا عادوا طبقت عليهم أشد القوانين والقروض ، فأذعن الموريسكيون لكل ما فرض عليهم ، ولكنهم افتدوا من الإمبراطور بمبلغ طائل من المال ، حق ارتداء ملابسهم القومية ، وحق الإعفاء من المطاردة إذا اتهموا بالردة (١) .

وكان الإمبراطور شارل كان حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين ، قد وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى في الحقوق والواجبات ، ولكن هذه المساواة

لم تحقق قط ، وشعر العرب المنتصرون منذ الساعة الأولى ، أنهم ما زالوا موضع الريب والإضطهاد ، وفرضت عليهم فروض وضرائب كثيرة لا يخضع لها النصارى ، وكانت وطأة الحياة تنقل عليهم شيئاً فشيئاً ، وتترى ضدهم السعايات والإتهامات ، وقد غدوا في الواقع أشبه بالرقيق منهم بالرعايا الأحرار . ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، وفشت فيهم هذه الرغبة ، صدر قرار في سنة ١٥٤١ ، يحرم عليهم تغيير مساكنهم ، كما حرم عليهم الزواج إلى بلنسية ، التي كانت دائماً طريقهم المفضل إلى ركوب البحر ، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من أى الثغور إلا بترخيص ملكي نظير رسم فادح . وكانت السياسة الإسبانية تخشى دائماً اتصال الموريسكيين بمسلمي المغرب ، وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بمنتهى الشدة ، ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتي من سفراء اسبانيا في البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية ، بأن كثيراً من الموريسكيين الفارين ، يمرون بها في طريقهم إلى إفريقية والشرق الإسلامي (١) .

وهكذا لبثت السياسة الإسبانية أيام الإمبراطور شارلكان (١٥١٦ - ١٥٥٥) إزاء الموريسكيين ، تردد بين الإقدام والإحجام ، واللين والشدة . بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عسفاً وأكثر اعتدالاً ، منها أيام فرديناند وإيزابيلا . وفي عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الإعفاء والتسامح الرفيعة نوعاً ، ولكنهم لبثوا في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب ، عرضة للارهاق والمطاردة ، ولبثت محاكم التحقيق تجرد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل .

- ٢ -

على أن هذه السياسة المعتدلة نوعاً لم يتح لها الاستمرار في عهد ولده وخلفه فيليب الثاني (١٥٥٥ - ١٥٩٨) . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان لا يزال يجثم في قراره هذه النفوس الأبية الكليمة ، ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية في اكتساب شىء من ولائها المغضوب ، وكان الموريسكيون يحتشدون جماعات صغيرة وكبيرة في بسائط غرناطة ، وفي منطقة البشرات الجبلية ،

تتوسطها الحاميات الإسبانية والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية واجتماعية وثيقة بثغور المغرب ، وهو ما كانت ترقبه السلطات الإسبانية دائماً بكثير من الخذر والريب .

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة ، مازالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحن والحطوب اتحاداً ، وتعلقاً بترائه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثانى ألفت فرصتها فى إذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب ، التى خبت نوعاً فى عهد أبيه شارل الخامس . وكان هذا الملك المتعصب حبراً فى قرارة نفسه ، يخضع لوجى الأحبار والكنيسة ، ويرى فى الموريسكيين ما تصوره الكنيسة والسياسة الرجعية ، عنصراً بغيضاً خطراً دخيلاً على المجتمع الإسباني ، فلم تمض أعوام قلائل على تبوئه الملك ، حتى ظهرت بوادر التعصب والتحريض ضد الموريسكيين ، فى طائفة من القوانين والفروض المرهقة .

وكانت مسألة السلاح فى مقدمة المسائل ، التى كانت موضع الإهتمام والتشدد . وقد عنيت السياسة الإسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح ، واتخذت أيام فرديناند إجراءات لينة نوعاً ، فكان يسمح بحمل أنواع معينة من السلاح المنزلى كالسكين وغيرها ، وذلك بترخيص ورسوم معينة . ولكن الحكومة خشيت بعد ذلك عواقب هذا التسامح ، فأخذت تشدد فى الترخيص ، ووجد المسلمون فى بانسية من سلاحهم جملة ، وقيل لهم حينئذ ادعوا للتصير أنهم سيعاملون كالنصارى فى سائر الحقوق والواجبات ويرد لهم سلاحهم ، ولكن الحكومة لم تف بعهدتها . وفى سنة ١٥٤٥ صدر قرار بمنع حمل السلاح كافة ، ولكنه نفذ بشيء من اللين . وفى سنة ١٥٦٣ ، فى عهد فيليب الثانى ، صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين ، إلا بترخيص من الحاكم العام ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فأثار صدوره منخط الموريسكيين ، وكان السلاح ضرورياً للدفاع عن أنفسهم فى محلاتهم المنعزلة النائية . بيد أن قانون تحريم السلاح ، لم يكن سوى مقدمة لقانون أقسى وأشد إيلاماً ، هو القانون الخاص بتحريم استعمال اللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية على الموريسكيين ؛

وقد لبثت اللغة والتقاليد العربية في الواقع للموريسكيين أوثق الروابط بماضيهم وتراثهم ، وكانت عماد قوتهم المعنوية ، ومن ثم كانت عناية السياسة الإسبانية بالعمل على محوها بطريق التشريع الصارم ، والقضاء بذلك على آخر الروابط التي تربط الموريسكيين ، بماضيهم وتراثهم القومي . وقد فكر بعض أعيان الكنيسة أن يتعلم القسس الذين يقومون بحركة التنصير اللغة العربية ، لكي يستطيعوا إقناع الموريسكيين بلغتهم ، والنفاذ إلى أعماق نفوسهم ، ولكن فيليب الثاني لم يوافق على هذا الرأي ، وآثر أن تعلم القشتالية لأبناء الموريسكيين منذ طفولتهم ؛ وكانت السياسة الإسبانية قد حاولت تنفيذ مشروعها منذ عهد الإمبراطور شارلوكان ، فصدر في سنة ١٥٢٦ قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية وارتداء الثياب العربية ، ولكنه لم ينفذ بشدة ، وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية ، نظير ضريبة معينة ، واستمر هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثاني ، وكان يجمع من هذه الضريبة مبلغ طائل . ولكن فيليب الثاني كان ملكاً شديد التعصب ، كثير التأثير بنفوذ الأعيان ، فلم يلبث أن استجاب لتحريضهم ، وأمر في سنة ١٥٦٦ أن يحدد القانون القديم بتحريم اللغة والثياب العربية ، وهكذا حاول بطريق التشريع أن يسد الضربة الأخيرة للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، فأصدر هذا القانون الهمجي الذي لم يسمح بصدور مثله في تاريخ المجتمعات المتقدمة .

ويقضى هذا القانون بأن يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد بأن يكتب العربية أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أو عقود تجرى بالعربية تكون باطلة ، وتسلم جميع الكتب العربية إلى السلطات في ظرف ثلاثين يوماً ، ويحرم على الموريسكيين أن يتخذوا أسماء عربية أو يرتدوا الثياب العربية ، ويحظر التحجب على النساء ، ويلزم بارتداء الثياب الأوربية المكشوفة ، وذلك في ظرف عام ؛ ويجب أن تجرى رسوم الزواج والخطبة وفقاً للتقاليد المسيحية ، وأن تبقى المنازل مفتوحة أثناء الإحتفال بها ، وكذلك يوم الجمعة وأيام الأعياد ، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا مايقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة ؛ ويحرم إنشاد الأغاني القومية أو مزاولة الرقص العربي ، كما يحرم الخضاب بالحناء ، وتهدم الحمامات العامة والخاصة . وفرضت



الملك فيليب الثاني

( عن صورة تسيانو المحفوظة بمتحف مدريد )

على المخالفين عقوبات فادحة ، تختلف من السجن إلى النفي والإعدام ؛ وكان إحراز الكتب والأوراق العربية ولا سيما القرآن ، يعتبر في نظر السلطات من أقوى الأدلة على الردة ، ويعرض المتهم لأقصى أنواع العذاب والعقاب .

أعلن هذا القانون المروع في غرناطة في يوم أول يناير سنة ١٥٦٧ ، وهو اليوم الذي سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به في كل عام ، وعلق في ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة ، فوقع لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، وفاضت قلوبهم الكسيرة سخطاً وأسى ويأساً ، وأحيض تنفيذته بمنتهى الشدة ، فحطمت الحمامات تباعاً ، واجتمع زعماء الموريسكيين وتباحثوا فيما يجب عمله إزاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضرعة والحسنى لإلغاء هذا القانون أو على الأقل لتخفيف وطأته ، فقرروا التظلم للعرش . وحمل رسالتهم إلى فيليب الثاني ، وإلى وزيره الطاغية اسبينوسا ، سيد اسباني نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وكان يعطف على هذا الشعب المنكود ، ويرى خطر السياسة التي اتبعت لإبادته ؛ ولكن وساطته ذهبت عبثاً ، وحملت سياسة العنف والتعصب في طريقها كل شيء ، ونفذت الأحكام الجديدة في المواعيد التي حددت لها ، ولم تبد السلطات في تنفيذها أى رفق أو مهادنة (١) .

ولم يحظ بلمحة من الرفق سوى الموريسكيين في بلنسية ، وكان زعيمهم وكبير أشرافهم كوزمي بن عامر من المقرين إلى البلاط ؛ فسعى للتخفيف عنهم ، وكللت مساعيه بالنجاح في بعض النواحي ، وهو أن يعامل الموريسكيون بالرفق في حالة الإتهام بالردة ، ولا تنزع أملاكهم بتهمة المروق ، وذلك على أن يدفعوا إتاوة سنوية قدرها ألفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق (٢) .

وأما في غرناطة فقد بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والدود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المفضي ، أو الموت قبل أن تنطفيء في قلوبهم وضمايرهم ، آخر جذوة من الكرامة والعزة ، وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضي

(١) Prescott: Philip II of Spain; V. III. p. 12 - 29 وكذلك Lea : The Moriscos

p. 150, 151 & 230 - 234

Lea : ibid ; p. 126 (٢)

المجيد والترات العزيز ، وكانت نفوسهم ماتزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس ، وكان يرون في المناطق الجبلية القريبة ملاذاً للثورة ، ويؤمنون أن يصلوا بالمقاومة إلى الغاء هذا القانون الهمجي أو تخفيفه .

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية . ومن الأسف اننا لم ننتلق عن هذه المرحلة المؤسسية والأخيرة من تاريخ الأمة الأندلسية ، شيئاً من الروايات العربية ، وهي تقف كما رأينا عند محنة التنصير الأولى عقب سقوط غرناطة ، فلا بد لنا هنا من أن نرجع إلى الرواية النصرانية دون سواها .

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة ، مؤثرين الموت على ذلك الإستشهاد المعنوي الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولاً في غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة منهم تحشد في ضاحية « البيازين » . وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسباً تصفه الرواية القشتالية كان رجلاً جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرم بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الإنتقام الذريع منهم ؛ ولاغرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج وهم كما رأينا من أشرف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الإسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرات ، وثيق الصلة بمواطنيه ، فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم ، ترحف سراً إلى غرناطة ، وتجاوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجئ حامية الحمراء وتسحقها ، وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ ، إذ يشغل النصارى يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم . ولكن أبناء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية ، فالتحذات التحولات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون إزاء هذه الأهبة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى .

ووضع أديب من زعماء الثورة يدعى باسمه المسلم محمد بن محمد بن داود ، قصيدة ملتهبة يصف فيها آلام بنى وطنه ، ويستمد فيها الغوث والعون من الله ونبيه ، فضبطت ، وأرسلت إلى البلاط مع ترجمتها القشتالية ، وإليك ما ورد في هذه القصيدة التي تعتبر كأنها صرخة ألم أخيرة لشعب شهيد :

تفتتح القصيدة بحمد الله والثناء عليه والتنويه بقدرته ، وخضوع جميع الناس والأشياء لحكمه ، ثم يقول أن استمعوا إلى قصة الأندلس المحزنة ، وهى تلك الأمة العظيمة ، التى غدت اليوم ضعيفة مهيضة ، يحيط بها الكفرة من كل صوب ، وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لاراعى لهم .

وفى كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة ، حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .

ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، وهى مسخ للواحد القهار ، ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام . وإذا ما قرع الناقوس التى القس عظته بصوت أجش ، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تنحنى الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولا خجل . . . . .

ثم يصف وسائل إرهابهم والتضييق عليهم ، من التسجيل والتفتيش وغيرها ، وما يفرض عليهم من الضرائب الفادحة ، وكيف تؤدى عن الحى والميت ، والكبير والصغير والغنى والفقير ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ، ولا يفلت من ظلمهم كائن ، وكيف يلتقى بهم فى السجن ، ويرغمون على التنصير بالاعتقال والتعذيب ، وكيف تهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد . . . . . وكيف تكس المظالم على رؤوسهم تكديساً ، ويسومهم الحسف أصاغر النصارى ، وكل منهم يفتن فى ضروب الإضطهاد .

ثم يقول : ولقد علقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) ، فى ميدان باب البنود ، قانوناً جديداً ، وأخذوا يدهمون الناس فى نومهم ، ويزمعون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا .

ونحن إذ نياس من عدل الإنسان نستغيث بالنبي ، معتمدين على ثواب الآخرة ، وقد حثنا شيوخنا على الصلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله ، فهو الذى يرحمنا فى نهاية الأمر » (١) .

واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم ، ووجهوا بعض الكتب خفية ، إلى أمراء الثغور فى المغرب ، يطلبون إليهم الغوث والعون ، فوقع كتاب منها فى يد

حاكم غرناطة ؛ وتقول الرواية القشتالية إنه كان موجهاً من أحد زعماء البيازين ، إلى مسلمى الثغور المغربية ، يستحلفهم فيه الغوث بحق روابط الدين والدم ، ويقول : «لقد نحرمتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة . إن مصائبنا لأعظم من أن نتحمل ، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع ، وفى قلوبنا قبس من الأمل ، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب » ؛ ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية ، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين ، الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم فى البشرات ، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين ، الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الإسبانية فى ذلك العصر .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ وقع حادث كان نذير الانفجار ، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الإيبانيين فى طريقهم إلى غرناطة ، ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند ، كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق ، ومثلت بهم جميعاً . وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ، ونفذ إلى المدينة ليلاً ، وحاول تخريض مواطنيه فى « البيازين » على نصرته ، ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية . ولقد كان موقفهم حرجاً فى الواقع ، لأنهم يعيشون إلى جانب النصرارى على مقربة من الحامية ، وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة ، يخشون عليها من انتقام الإيبان . بيد أنهم كانوا يؤيدون الثورة : يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم ؛ فارتد ابن فرج على أعقابها واجتاز شعب جبل شلير (سييرانفادا) إلى الهضاب الجنوبية ، فيما بين بلش (فيليز) والمرية فلم تمض بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات ، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ، ووثب الموريسكيون بالنصرارى القاطنين فيما بينهم ، ففتكوا بهم ومزقوهم شر تمزيق .

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس ، ودوت بصحبة الحرب القديمة ، وأعلن الموريسكيون استقلالهم ، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت . وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز ملكهم القديم ، فوق اختيارهم على فى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى كاردوفا أو دى فالور . وكان هذا الإسم

النصراني القشتالي ، يحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة . ذلك أن فرناندو دى قالور كان ينتمي في الواقع إلى بني أمية ، وكان سليل الملوك والخلفاء ، الذي سطعت في ظلهم الدولة الإسلامية في الأندلس ، زهاء ثلاثة قرون . وكان فتى في العشرين ، تنوه الرواية القشتالية المعاصرة بوسامته ونبيل طلعه ، وكان قبل انتظامه في سلك الثوار مستشاراً ببلدية غرناطة ، ذا مال ووجاهة . وكان الأمير الحديد يعرف خطر المهمة التي انتدب لها ، وكان يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً ؛ ففي الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال ، ولجأ إلى شيعته آل قالور في قرية بزناز ، فهرعت إليه الوفود والجموع من كل ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتتويجه في التاسع والعشرين من ديسمبر ( سنة ١٥٦٨ ) في احتفال بسيط موثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة ، فصلى عليها الأمير متجهاً صوب مكة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزاً بالخضوع والطاعة ؛ وأقسم الأمير أن يموت في سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكي عربي هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة ، واختار عمه الملقب بالزغوير قائداً عاماً لجيشه ، وقد كان صاحب الفضل الأكبر في اختياره للرياسة ، وبعث ابن فرج على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات ، ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ، واتخذ مقامه في أعماق الجبال في مواقع منيعة ، وبعث رسله في جميع الأنحاء ، يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصراني والعود إلى دينهم القديم .

ووقعت نقمة الموريسكيين بادية ذى بدء ، على النصراني المقيمين بين ظهرانيهم في أنحاء البشرات ، ولاسيما القسس وعمال الحكومة ، وكان هؤلاء يقيمون في محلات متفرقة سادة قساة ، يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية ، وكان القسس بالأخص سبب بلائهم ومصائبهم ، ومن ثم فقد كانوا ضحايا الثورة الأولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصراني في تلك الأنحاء ومزقوهم تمزيقاً ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل ؛ وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحه عامة ، لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ . وذاعت أنباء المذبحة الهائلة في غرناطة ، فوجم لها الموريسكيون والنصراني معاً ، وكل يخشى عواقبها الوخيمة ؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصراني بهم انتقاماً لمواطنيهم ، وكان النصراني يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة ، فتسقط المدينة

في أيديهم ، وعندئذ يحل بهم النكال الرائع . بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية ، فتقول إنه لم يحرص على هذه المذابح ، ولم يوافق عليها ، بل لقد نأر لها وحاول أن يحول دون وقوعها ، وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة ، فنزل راضياً واندمج في صفوف المجاهدين . وهنا يخفى ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد(١).

وكانت غرناطة في أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً ، وكان حاكمها المركزي منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى . بيد أنه لم يكن يقدر مدى الانفجار الحقيقي ، فغصت غرناطة بالهند ، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة ، رغم احتجاجاتهم وتوكيدهم بأن لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم ؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته في ٢ يناير سنة ١٥٦٩ ، تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تنديلا ، وعبر جبل شلير (سييرانفادا) ، وسار توا إلى أعماق البشرات حيث يجتشد جيش الثوار . وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته في آكام بوكيرا الوعرة ، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم ، قد حذقوا حرب الجبال ومفاجأتها ، فما كاد الإسبان يقتربون حتى انقضوا عليهم ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ارتد الموريسكيون على أثرها إلى سهول باترنا ، وتخلف كثيرون منهم ولا سيما النساء ، ففتك الإسبان بهم فتكا ذريعاً ، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو ، وأن يخلدوا إلى السكينة ، وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم . وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم ، ولكن المتطرفين من أنصاره ولا سيما المتطوعين المغاربة ، رفضوا الصلح ؛ فاستؤنفت المعارك ، ورجحت كفة الإسبان ، وهزم الموريسكيون مرة أخرى ، وفر محمد بن أمية ، وأسرت أمه وزوجه وإخواته ، وأصيب الإسبان بهزيمة شديدة في آكام «جواخاريس» ، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد ، وقتل الإسبان من تخلف منهم أشنع قتل ، وكان ممن تخلف منهم زعيم باسل يدعى «الزمار» أسره الإسبان مع إبنته الصغيرة ، وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذبوه عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً ، ثم مزقت أشلاوه . وهكذا كانت أساليب الإسبان ومحاكم التحقيق إزاء العرب المنتصرين .

واختفى محمد بن أمية مدى حين في منزل قريبه « ابن عبو » ، وكان من أنجاد الزعماء أيضاً ، وطارده الإسبان دون أن يظفروا به . على أن هذه الهزائم لم تنل من عزم الموريسكيين ، فقد احتشدوا في شرق البشرات في جموع عظيمة ، وأخذوا يهددون ألمرية ، فسار إليهم المركز « لوس فيليس » على رأس جيش آخر ، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ومزق الموريسكيون ، وقتل الإسبان كعادتهم بالأسرى ، وقتلوا النساء والأطفال قتلا ذريعاً .

ووقعت في نفس الوقت في غرناطة مذبحه مروعة أخرى ، فقد كان في سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين ، اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة ، فأذاع الإسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لإنقاذ السجناء ، بمؤازرة مواطنهم في البيازين ، وعلى ذلك صدر الأمر باعدام السجناء ، فانقض الجند عليهم وذبحوهم في مناظر مروعة من السفك الأثيم .

وكان لهذه الحوادث الأخيرة أثر في إذكاء الثورة ، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأن الموت في ساحة الحرب خير مصير يلقون ، فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل ، وطافت بهم صيحة الانتقام ، فانقضوا على الحاميات الإسبانية المبعثرة في أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقاً ، وهزموا قوة إسبانية تصدت لقتالهم ، واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل ، وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبويء عرشه الخطر ، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا ، وبعث أخاه عبدالله إلى قسطنطينية بطلب العون من سلطانها ؛ ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين بالرغم من تكررها منذ سقوط غرناطة ، ولم يلبها غير إخوانهم المجاهدين في إفريقية ، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة ، أن تجوز إلى الشواطئ الإسبانية ، ومنهم فرقة من الترك المرتزقة ، وأن تهرع إلى نصرة المنكوبين .

وهكذا عاد النضال إلى أشده ، وخشى الإسبان من احتشاد الموريسكيين في البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بتشريدهم في بعض الأنحاء الشمالية . وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة ، وُفرق فيها بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات ، في مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركز لوس فيليس في نفس الوقت إلى مقالة الموريسكيين ، في سهول المنصورة على مقربة من أراضي مرسية ،

ونشبت بينه وبينهم وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص في الأهمية والمؤن ؛ وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة كانتا سبباً في اضطراب الخطط المشتركة ، واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعى إلى مدريد ، وأقبل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة في هذا الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة .

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم في هضاب الأندلس وسهولها ، وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع في المعسكر الموريسكي حادث خطر ، هو مصرع محمد بن أمية . وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والحيانة ، وكانت عوامل الخلاف والحسد ، تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة . وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه ورقيق شمائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه ، الحقد في نفوس نفر من ضباطه . وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله فتقول ، إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل ( الوزير ) له عشيقة حسناء تسمى زهرة ، فانتزعاها محمد منه قسراً ، فحقد عليه وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يخرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكان ثمة منهم فرقة في المعسكر الموريسكي ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر ابن أمية وقتلوه ، بالرغم من احتجاجه وتوكيد برائته ، واستقبل الجند الحادث بالسكون . وفي الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو ابن عبو ، فتسمى بمولاي عبدالله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الإحتفال المؤثر الذي وصفناه ، وكان مولاي عبدالله أكثر فطنة وروية وتدبرا ، فحمل الجميع على احترامه ، واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف ، بين مجاهد ومرتزق ومغامر .

وفي أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاي عبدالله بجيشه صوب « أورجيه » وهي مفتاح غرناطة ، واستولى عليها بعد حصار قصير ، فداعت شهرته وهرع الموريسكيون في شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ، وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة « لاقيجا » ، وقد

كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى ؛ وكان فيليب الثاني حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية ، وعجز القادة المحليين عن قمعها ، قد عين أخاه الدون خوان (جون) قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون خوان اشتداد ساعد الموريسكيين اعتمزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج في أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب وادي آش ، وحاصر بلدة « جليرا » وهى من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى ، منهم فرقة تركية ، فهاجمها الإسبان عدة مرات وصوبوا عليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة ، أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل عدد من الأكابر الإسبان وضباطهم ، ودخلها الإسبان دخول الضواري المفترسة ، وقتلوا كل من فيها ولم يفرؤ النساء والأطفال ، وكانت مذبحه رائعة ( فبراير سنة ١٥٧٠ ) ، وتوغل الدون خوان بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى « الحبقى » تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الإسبان فى سيدون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والحلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدد كبير ، ولم يستطع الدون خوان أن يعيد النظام إلا بصعوبة ؛ فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى أندرش فى مايو سنة ١٥٧٠ .

وهنا رأت الحكومة الإسبانية أن تجنح إلى شىء من اللين ، خشية عواقب هذا التضال الرائع ، فبعث الدون خوان رسله إلى الزعيم « الحبقى » يفتاحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعمفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانة ، ولهم أن يقدموا ظللماتهم ، فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ، ماعدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت . فلم يصنع إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً أن اسبانيا النصرانية لاعهد لها ولا ذمام ، وأنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون خوان إلى استئناف المطاردة والقتال ، وانقض الإسبان على الموريسكيين محاربين ومسلمين ، يمعنون فيهم قتلا وأسراً ، وسارت قوة بقيادة دون سيزا إلى شمال البشرات ، واشتبكت مع قوات مولاي عبد الله فى معارك غير حاسمة ، وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت

عن طريق الحبتي ؛ وكان مولاي عبد الله قدرأى تجهم الموقف ، ورأى أتباعه ومواطنيه يستقون من حوله تبعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح في طريقها كل شيء ، فقال إلى الصلح والمسالم ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من برائن القوة القاهرة ، واتفق المفاوضون أن يتقدم الحبتي إلى الدون خوان باعلان خضوعه ، وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الإسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت مقامهم . وفي ذات مساء سار الحبتي في سرية من فرسانه إلى معسكر الدون خوان في أندرش ، وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود .

ولكن هذا الصلح لم يرض بالأخص مولاي عبد الله وباقي الزعماء ، لأنهم لمخوا فيه نية اسبانيا النصرانية في نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ، ففيم كانت الثورة إذاً وفيم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز ، الذي نشأوا في ظلاله الفيحاء ، والذي يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المحجف ، وارتاب مولاي عبد الله في موقف الحبتي ، إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه لمعسكره بالحيلة وهناك أعدم سراً .

ووقف الدون خوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاي عبد الله ، فأعلن إليه أن يترك الموريسكيين أحراراً في تصرفاتهم . بيد أنه يأبى الخضوع مابق فيه رمق ينبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه ، على أن يحصل على مُلك اسبانيا بأسره ، والظاهر مولاي عبد الله كانت قد وصلته أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله ، وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاي عبد الله أخاه الغالب ليقود الثوار في تلك الأنحاء ، وثار الحكومة الإسبانية لهذا التحدي ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ، فسار الدون خوان في قواته إلى وادي آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دون ركيصانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الإسبان في طريقهم كل شيء ، وامعنوا في التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف في وجه هذا السيل فزقت تبعاً ، وهدم الإسبان الضياع والقرى والمعقل ،

وأتلقت الأحراش والحقول ، حتى لا يبقى للثائرين مثنوى أو مصدر للقوت ، وأخذت الثورة تنهار بسرعة ، وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم في إفريقية ، ولم يبق أمام الإسبان سوى مولاي عبد الله وجيشه الصغير . بيد أن مولاي عبد الله لبث معتمداً بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف .

وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ ، أصدر فيليب الثاني قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية ، وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها ، ونفذ القرار الحديد بمنتهى الصرامة والتحوط ، وجمع الموريسكيون المسلمون من غرناطة وبسطة ووادي آش ، وسيقوا إلى الكنائس أكداً ، يحيط بهم الجند في كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا في مختلف أنحاء قشتالة وليون .

ووقعت أثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية حيث ، جنح رجال الحكومة في بعض الأحياء ولاسيما في رنדה ، إلى نهب المنفيين والقتل بالنساء والأطفال . ولما سمع الموريسكيون المعتصمون بالجبال هذه الأنباء ، انحدروا إلى السهل ، وقتلوا كثيراً من الجند الثقيلين بالغنائم . وكان مصير المنفيين مؤلماً ، إذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض ، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة مؤلمة ، ونص على وجوب وضعهم تحت الرقابة الدائمة ، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم في سجلات خاصة ، وعين لهم حيث وجدوا مشرفاً خاصاً يتولى شؤونهم ، وحرّم عليهم أن يغيروا مساكنهم إلا بتصريح ملكي ، وحرّم عليهم بتاتاً أن يسافروا إلى غرناطة ، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت ؛ وهكذا شرد الموريسكيون في غرناطة أفضع تشريد ، وانهار بذلك مجتمعهم القوي المتماسك في الوطن القديم (١) .

ولم يبق إلا أن يسحق مولاي عبد الله وجيشه الصغير ، وكان هذا الأمير المنكود يرى قواه وموارده تذوب بسرعة ، وقد انهار كل أمل في النصر أو السلم الشريف ، بيد أنه لبث مختفياً في أغوار الجبال مع شردمة من جنده المخلصين . وفي مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للإسبان ، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره في بعض المغائر ، وهناك استطاعوا إغراء ضابط مغربي من خاصته

يدعى جونزالفو « الشنيس » . وكان الشنيس يحقد عليه لأنه منعه من الفرار إلى المغرب ؛ وأغدق الإسبان له المنح والوعود ، وقطعوا له عهداً بالعفو الشامل ، وضمان النفس والمال ، وأن ترد إليه زوجته وابنته الأسيرتان ، إذا استطاع أن يسلمهم مولاي عبد الله حياً أو ميتاً . وكان الإغراء قوياً مثيراً ، فدبر الضابط الخائن خطته لاغتيال سيده ، وفي ذات يوم فاجأه مع شزيمة من أصحابه ، فقاوم مولاي عبد الله ما استطاع ، ولكنه سقط أخيراً مشحناً بجراحه ، فألقي الخونة جثته من فوق الصخور لكي يراها الجميع ، ثم حملوها إلى غرناطة ، وهناك استقبلها الإسبان في حفل ضخم ، ورتبوا موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هي إنسان حي ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل والنكال ، ومزقت أربعاً ، وأحرقت بعد ذلك في الميدان الكبير ، ووضع الرأس في قفص من الحديد ، رفع فوق سارية في ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات (١) .

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت ، وخبث آخر جذوة من العزم والنضال ، في صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة ، على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت ريح من الرهبة والإستكانة المطلقة ، على ذلك المجتمع المهيب المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، في ظل العبودية الشاملة والإرهاق المطلق ، حقبة أخرى .

# الفصل الرابع

## توجس السياسة الإسبانية

### وعصر الغارات البحرية الإسلامية

الموريسكيون قوة أدبية واجتماعية • بعض ما قيل في وصفهم • تعلقهم  
بتراتهم الروحي • نشاط ديوان التحقيق في مطاردتهم • قضيه موريسكية  
شهيرة • عدد الموريسكيين • ما يقوله عنهم سفير البندقية • أقوال الكاتب  
سيرفانتس • براعتهم الاقتصادية • تخوف السياسة الإسبانية من وجودهم •  
سلات الموريسكيين بمسلمي افريقية والترك • دسائس ومؤامرات مزعومة •  
غارات البحارة المجاهدين على الشواطئ الإسبانية • البحر الأبيض المتوسط  
مسرح القرصان منذ العصور الوسطى • ظهور المغامرين المسلمين في هذه المياه •  
ظهور البحارة الترك والموريسكيين • النزعة الانتقامية في هذه الغارات •  
تحوط إسبانيا ضد الغارات • غارات المجاهدين المغاربة • معاونة الموريسكيين  
للبحارة المغيرين • ظهور أروج وخير الدين • استيلاء خير الدين على الجزائر  
والتغور المغربية • غاراته المتوالية على الشواطئ الإسبانية • غارات طرغود  
خلف خير الدين • غارات البحارة التونسيين • انزعاج إسبانيا ولوم الموريسكيين  
اتساع نطاق الغارات في البحر الأبيض • انتشار تجارة الرقيق • حوادث  
المغرب الأقصى • فرار الأمير الشيخ الى إسبانيا واستغاثته بفيليب الثالث •  
الموريسكيون يحرضون مولاي زيدان ملك المغرب على غزو إسبانيا • استيلاء  
الإسبان على ثغر العرائش • مقتل الشيخ وانتهاء مغامرته • الكفاح بين مولاي  
زيدان وإسبانيا •

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح  
المريير بين شعب مهيب أعزل ، يحاول أن يحتفظ بشخصيته وكرامته وحقه في الحياة ،  
وبين القوة الغاشمة ، التي تريد أن تسحق في بقية الأمة المغلوبة ، كل أثر للحياة  
الحرّة الكريمة . ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة أخرى ، نذيراً عميق الأثر  
للسياسة الإسبانية . ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر  
القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية يخشى بأسها . وكان هذا الشعب المستكين الأعزل  
ما يزال رغم ضعفه وذلته ، يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة

بارزة في الشؤون الاقتصادية . وكانت الكنيسة ما تزال تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق إيمانه . وقد وصف المطران جويريرو الموريسكيين في سنة ١٥٦٥ بقوله : « إنهم خضعوا للتنصير ، ولكنهم لبثوا كفرة في سرائرهم ، وهم يذهبون إلى القديس تفادياً للعقاب ، ويعملون خفية في أيام الأعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويستحمون حتى في ديسمبر ، ويقىمون الصلاة خفية ، ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعاً للقانون ، ثم يغسلونهم نحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة في ثياب أوربية ، فاذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية ، واحتفل بالزواج طبقاً للرسم العربية » (١) .

والظاهر أن هذه الأقوال تنطوى على كثير من الصدق . ذلك أن الأمة الموريسكية المهيشة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والإرهاق ، متعلقة بتراتها الروحي القديم . وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبيذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهم مسلمين في سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمة خفية ، ويكتبون الأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية ، أو بلغة هي مزيج من الإسبانية والعربية تكتب بأحرف لاتينية . وقد انتهى إلينا الكثير من هذه الأدعية والمدائح الإسلامية الموريسكية ، وكثير منها يفيض بالخرافات والأساطير المقدسة حول سيرة النبي العربي . بيد أنها تدل بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم ، وإن التبست عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن .

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطه ضد الموريسكيين طوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة بقيت بالرغم من كر الأعوام وتوالي الحن ، دفينه في قلب الشعب المضطهد ، تنضح آثارها من آن لآخر . يدل على ذلك ما تسجله محفوظات الديوان ، من أن قضايا الموريسكيين أمام محاكم التحقيق ، بلغت في سنة ١٥٩١ ، ٢٩١ قضية ، وبلغت في العام التالي ١١٧ قضية ، وظهر في حفلة « الأوتو دافي » التي أقيمت في ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٤ ثمانية وسعون موريسكياً ، نفذت فيهم الأحكام ، وظهر في حفلة ٧ يناير

سنة ١٦٠٧. ثلاثة وثلاثون موريسكياً ، واستعمل العذاب في محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الإتهام يوجه أحياناً إلى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ، فقد حدث مثلاً في سنتي ١٥٨٩ و ١٥٩٠ ، أن سجلت في قرية مسلاته الموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت في قرية كارليت مائتان ، واتهم أربعون أسرة بصوم شهر رمضان .

والواقع أنه كان من الصعب ، على من بقيت في نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء ، ولم يحمدها تعاقب جيلين أو ثلاثة من النصرانية المفروضة ، أن يكونوا دائماً بمنجاة من الإتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكي بأسره أينما وجد ، عرضة للإتهام بالحق وبالباطل . وإذا كانت ثمة فترات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالأخص إلى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضع لنا قضية بني عامر زعماء الموريسكيين في بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح .

كانت أسرة بني عامر من أعرق الأسر المسلمة القديمة ، التي أكرهت على التنصير ، وكان زعمائها إخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمي ودون خوان ودون هرناندو بني عامر ، ومنزل الأسرة في بنجوازيل ( بني وزير ) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات أخرى ، محرمة على الموريسكيين . ففي مايو سنة ١٥٦٧ صدر قرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد أن وافقت المحكمة العليا ( سوبريما ) نظراً لخطر مكانتهم ، فاختفى الإخوة الثلاثة حيناً ، ولكن الدون كوزمي قدم نفسه للسلطات في يناير سنة ١٥٦٨ ، وقرر في التحقيق أنه يعتقد أنه نصر طفلاً ، ومع ذلك فإنه لا يعتبر نفسه نصرانياً بل مسلماً ، وأنه جرى خلال حياته على مراعاة الشعائر الإسلامية ، ولم يذهب إلى المعترف إلا خضوعاً للأوامر ، على أنه ينبغي أن يكون في المستقبل نصرانياً ، وأن يؤدي ما يطلبه المحققون إليه ، ولم يقدم دون كوزمي خلال محاكمته أى دفاع ، ولكنه أفرج عنه في ١٥ يولييه بضمان قدره ألفي دوقة ، على أن يبيى في بلنسية ولا يبرحها ، ومع ذلك فقد سافر دون كوزمي إلى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة آلاف دوقة ،

واستطاع فوق ذلك بنفذه القوى ، أن يحصل للموريسكيين في بلنسية على قرار التوفيق الصادر في سنة ١٥٧١ حسباً قدمنا .

وفي سنة ١٥٧٧ جددت التهم القديمة ضد بني عامر ، وقبض على كوزى وأخيه خوان ، وحوكم كوزى وشرح للمحكمة عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الإسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الأولى ، ولكن القضية أوقفت قبل أن يصل التحقيق إلى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بني عامر استطاعوا بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ ، ان يحصلوا على براءتهم وإطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال (١) .

وهكذا نرى أن الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذى فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا في قرارة نفوسهم الكريمة ، ببقية راسخة من تراثهم الروحى القديم .

هذا من ناحية الدين والعقيدة ؛ وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكوّنون مجتمعاً متماسكاً متضامناً ، قوياً بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم في أواخر القرن السادس عشر وفقاً لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر البعض الآخر عددهم يومئذ باربعائة الف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لمجموع سكان اسبانيا في ذلك الحين ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين . ووصفهم سفير البندقية في سنة ١٥٩٥ ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد في العدد والثروة ، وأنهم لا يذهبون إلى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح . وذكر الكاتب الإسباني الكبير سيرفانتيس (٢) في بعض رسائله أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون أولادهم قط في سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون في الإنفاق ويكتنزون المال ، فهم الآن أغنى الطوائف في اسبانيا . وأما عن الناحية الاقتصادية ، فقد قيل إن الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار

(١) Dr. Lea: History of the Inquisition; V. III p. 362 - 365

(٢) مجويل سيرفانتس دى سافدرا (١٥٤٧ — ١٦١٦) من أعظم كتاب اسبانيا

وشمرائها ، وهو مؤلف قصة الفروسية الشهيرة « دون كيشوتى دى لامانشا »

البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والحجازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترطون العقارات احتفاظاً بجزية استعمال أموالهم ، وقد كان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية (١) .

كانت اسبانيا النصرانية إذاً ، أبعد من أن تطمئن إلى مجتمع العرب المتصرين ، فقد كانوا في نظر الكنيسة أبداً كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جانبها تلتصم بالمعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهي تخشى أن يعود إلى الثورة ، وهي تخشى من صلواته المستمرة مع مسلمي إفريقية ومع سلطان الترك ، وهي مازالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الأخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء إلى الأبد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا .

\* \* \*

والواقع أن صلوات الموريسكيين مع أعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية . وقد كانت الممالك والإمارات المغربية في الضفة الأخرى من البحر ، على استعداد دائماً لأن تصغي إلى هذا الشعب المنكود ، سليل إخوانهم الأعمام في الدين ، وأن تعاونه كلما سنحت الفرص . وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على أشدها ، في مياه البحر الأبيض المتوسط ، وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية . وأكثر من ذلك أن السياسة الإسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على أن تعتبر الموريسكيين خطراً قومياً يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الرواية الإسبانية إلينا دلائل هذا الخطر في حوادث كثيرة . ففي سنة ١٥٧٣ وقعت السلطات الإسبانية على أنباء مفادها أن أمراء تلمبسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » في مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين في بلنسية . وقيل بعد ذلك إن هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون

ينظمها حاكم بيارن الفرنسى ، وان سلطان الترك وسلطان الجزائر كلاهما يؤيد المشروع ، وان أساطيل الغزو كانت ترمع النزول مياه برشلونة وفي دانية ، وفيما بين مرسية وبلنسية ، وأن الفضل فى فشل هذا المشروع كله يرجع إلى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حيناً على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الإسبانية من أن هنرى الرابع ملك فرنسا ، كانت له فى ذلك مشاريع خطيرة ، ترمى إلى غزو اسبانيا من ناحية بلنسية ، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وان زعماء الموريسكيين وعدوا بإضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، ولم يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر أن تقوم الثورة الموريسكية فى سنة ١٦٠٥ ، ولكن المؤامرة اكتشفت فى الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التى جمعها « ديوان التحقيق » الإسباني على يد أعوانه وجواسيسه ، تنقصها الأدلة التاريخية الحقة (١) .

على أن الخطر الحقيقى ، كان يتمثل فى غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطئ الإسبانية . وتعالى سير هذه الغارات فراغاً كبيراً فى الرواية الإسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الإنتقام للأندلس الشهيدة . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهرأ بعد إخراج العرب المنتصرين من اسبانيا . ويشير المقرئ مؤرخ الأندلس إلى مغزى هذه الغارات البحرية بعد إخراج الموريسكيين ، فيقول إنهم انتظموا فى جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن (٢) .

ويجب أن نذكر أن مياه البحر الأبيض المتوسط شرقه وغربه ، كانت خلال العصور الوسطى ، دائماً مسرحاً سهلاً للأساطيل الإسلامية . فنذ أيام الأغالبسة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الأساطيل الإسلامية تجوس أواسط البحر الأبيض وغربيه ، وكانت الدول الإسلامية الأندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة فى شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ،

Dr. Lea: The Moriscos; p. 281-284 & 280-288 (١)

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ . وقد أنجز المقرئ كتابه سنة ١٦٣٠ .

بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ، وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية .

وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال «القرصنة» ، توجد في هذه العصور دائماً ، إلى جانب نشاط الأساطيل الرسمية . وكان البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور مسرحاً لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر (القرصان) يومئذ من النصارى ، من الأمم التي غزت البحر في عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة . وفي أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات في البحر الأبيض المتوسط ، واستمر النصارى عصوراً زعماء هذه المهنة . ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج . وكانت المغامم الوفيرة من الإتجار في الرقيق ، والبضائع المهربة ، وافتداء الرقيق ، تدعى عزمهم ، وتدفع إليهم بسيل من المغامرين من سائر الأمم . ولما ظهرت الأساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر ، ضعف أمر أولئك المغامرين . ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين ، ولكنهم لم يظهروا في هذا الميدان إلا منذ القرن الخامس عشر ، حينما ضعف أمر الأندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى ، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية . وكانت الشواطئ المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة . ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على قسطنطينية ، زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر . وكان سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين ، إيذاناً بتطور هذه المغامرات البحرية ، ونزول الأندلسيين والموريسكيين المنفيين إلى ميدانها ، واتخاذها مدى حين صورة الجهاد والانتقام القومي والديني ، لما نزل بالأمة الأندلسية الشهيدة من ضروب العسف والإرهاق (١) .

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطئ الإسبانية ، عقب استيلاء الإسبان على غرناطة ، وإكراههم للمسلمين على التنصير . ففي ذلك الحين غادر الأندلس آلاف من الأندلسيين المجاهدين ، أنفوا العيش في الوطن القديم ، في مهاد الذلة والاضطهاد ، تحت نير الإسبان ، وعبروا البحر إلى عدوة المغرب ، وقلوبهم

تفيض حقداً ورأساً ، واستقروا في بعض القواعد الساحلية ، مثل وهران والجزائر  
وبجاية ، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله ، والانتقام من أولئك  
الذين قضوا على وطنهم ، وظلموا أمتهم ، وانتهكوا حرمة دينهم . وكان البحر يهيب  
لهم هذه الفرصة ، التي لم تهبوها لهم الحرب البرية . وكانت شواطئ المغرب بطبيعتها  
الوعرة وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة ، التي تحميها وتحجبها الصخور العالية ،  
أصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقرصان المغيرين . وكانت الجزائر  
وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والإقلاع ، وكانت هذه الغارات البحرية  
تعتمد بالأخص على عنصر المفاجأة ، وتنجح في معظم الأحيان في تحقيق غاياتها .  
ويصف بيرومارتيري هذه الغارات بأسهاب ويقول إن فرديناند الخامس أمر  
في سنة ١٥٠٧ ، للتحوط ضد هذه الغارات بإخلاء الشاطئ الجنوبي ، من جبل طارق  
إلى ألمرية ، لمدى فرسخين إلى الداخل . ثم صدرت مراسم متعددة تحظر على  
الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطئ ، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئاً  
واستمرت الغارات على حالها . وكان اللوم يلقى في ذلك منذ البداية على الموريسكيين  
ولا سيما أهل بلنسية . وكان الموريسكيون كلما اشتدت عليهم وطأة الاضطهاد  
والمطاردة ، اتجهوا إلى إخوانهم في المغرب ، يستصرخونهم للتدخل والانتقام . وكان  
المجاهدون المغاربة ، يغيرون في سفنهم على الشواطئ الإسبانية ، ويخطفون النصارى  
الإسبان ، ويجعلونهم رقيقاً يباع في أسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون  
الحملة المغربية بالمعلومات الوثيقة ، عن أحوال الشواطئ ومواقع الضعف فيها ،  
ويعمدونها بالأقوات والمؤن . وكانت هذه الحملات تجهز في أحيان كثيرة لنقل  
الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ، أن  
تنقل منهم إلى الشواطئ الإفريقية جماعات كبيرة .

وقد ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر في الميدان ، عنصر جديد أذكي  
موجة الغارات البحرية في هذه المياه . ذلك أن البحارة الترك ، وعلى رأسهم الأخوان  
الشهيران أروج وخير الدين (١) ، اندفعوا من شرق البحر الأبيض إلى غربيته ،  
في طلب المغامرة والكسب . وفي سنة ١٥١٧ سار أروج في قوة برية وبعض السفن  
إلى الجزائر واستولى عليها . ولما قتل في العام التالي في معركة نشبت بينه وبين

(١) ويعرف كلاهما في الرواية الأوربية « بارباروسا » أو ذو اللحية الحمراء .

الإسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكماً على هذه الأنحاء ، وأمدده بالسفن والجنود . وتآلق نجم خير الدين من ذلك الحين ، وضحى اسمه يقرون بأعظم أمراء البحر في هذا العصر . وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغود الذي خلفه في الرياسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسان اليهودي ، وايدن ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة . وبسط أولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنات البحر الأبيض المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطئ الإيطالية والإسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من المغاربة والموريسكيين . وكان من أهم الغارات التي نظمها خير الدين على الشواطئ الإسبانية غارة وقعت في سنة ١٥٢٩ ؛ وذلك أن جماعة من الموريسكيين في بلنسية فاضوه لكي ينقلهم خلسة إلى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه إيدين ريس ، وصالح ريس إلى المياه الإسبانية ، ورسّت السفن المغيرة ليلاً عند أوليفا أمام مصب نهر « ألتيا » ، على مقربة من دانية ، ونزلت منها إلى البر قوة استطاعت أن تجمع من الأنحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الإسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية ( البليار ) . ولكن سفن « القرصان » انقلبت فجأة من الدفاع إلى الهجوم ؛ وانقضت على السفن الإسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة إلى الجزائر تحمل الموريسكيين الفارين ، وعدداً من أكابر الإسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الإسبانية الفخمة (١) . وتوالت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطئ الإسبانية ، وتتابع الفرص لدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة رفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم إلى شواطئ المغرب نحو سبعين ألفاً (٢) .

وفي سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركي طرغود ، الذي خلف خير الدين في الرياسة ، بغارة كبيرة على الشواطئ الإسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفي

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين بول The Barbary Corsairs في الفصول الأول والثاني والثالث ، حيثما يورد كثيراً من التفاصيل الشائقة ، عن هذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروبا وخير الدين .

وخمسمائة موريسكى ؛ وفي سنة ١٥٧٠ ، استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين في بالميرا . وفي سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة . وفي العام التالي استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة كالوسا . وبلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطئ الإسبانية بين سنتي ١٥٢٨ و ١٥٨٤ ثلاثاً وثلاثين . هذا عدا الغارات المحلية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين . وقد وصف لنا الكاتب الإسباني الكبير سيرفانتيس هذه الغارات البحرية المروعة في صور مثيرة شائقة ، ولا غرو فقد كان هو إحدى ضحاياها (١) .

ووقعت في سنة ١٦٠٢ غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على ثغر لورقة ، وحمل عدداً من الأسرى ؛ وكثرت الغارات في الأعوام التالية على الشاطئ الجنوبي ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار إنجليزي مغامر ، يحشد في سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث في الشواطئ الأندلسية ويقتنص الأسرى النصاري ، ويبيعهم عبداً في أسواق المغرب .

وكانت ثغور تونس في ذلك الوقت نفسه ، في أيام حاكمها عثمان داي (سنة ١٠٠٧ - ١٠١٩ هـ) ، ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشواطئ الإسبانية بلا انقطاع . وكان من أشهر أولئك البحارة المغامرين يومئذ ، عمر محمد باي الذي اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غارات جريئة على شواطئ إسبانيا الجنوبية ، وكان في كل مرة يعود مثقلاً بالغنائم والسبي (٢) .

وهكذا لبثت الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيها ، بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر ؛ وكان هذا غريباً في الواقع ، إذ كانت إسبانيا يومئذ سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الأطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهند الغربية ، وتسيطر على مياه البحر الأبيض الغربية . بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات الصغيرة المفاجئة ، التي كانت يقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة ، من القرصان المغاربة ، في سفن

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain; p. 363

(٢) كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس من ١٩٢٠ .

ضعيفة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم يلقى في ذلك دائماً على الموريسكيين ، ولا سيما سكان الثغور منهم ، فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات ، ويزودونها بالموءن والعون ، ويعينون لها موضع الرسو والإقلاع ، وقد كانت تأتي هي الأغلب لمعاونتهم على الفرار إلى ثغور المغرب ، وقد كان الموريسكيون بالرغم من اضطهادهم ، والتشدد في مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمي إفريقيا وأمراء المغرب جميعاً .

وهكذا لبثت هذه الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية . وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال الموريسكيين ، عنصراً بارزاً في تنظيمها وتوجهها ، وكانت فكرة الإنتقام للأمة الشهيدة ، تجثم في معظم الأحيان وراء هذه الغارات الخربة . ولما تم نفي الموريسكيين من الأراضي الإسبانية حسبما نفضل بعد ، زادت هذه الفكرة وضوحاً واشتدت وطأة الغارات ، بما انتظم في صفوف المجاهدين من المنفيين ، وغدت سلا بالأخص مركزاً لأولئك المبعدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطئ الإسبانية (١) .

ولبث البحارة الترك عصراً ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ؛ ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاهما القديم بمضى الزمن ، وتنقلب إلى حملات ناهية ، تنظم على الشواطئ الإيطالية كما تنظم على الشواطئ الإسبانية ، وترى قبل كل شيء إلى تغذية أسواق المغرب والشرق الأدنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة ، مغامرون من الإفرنج من سائر الأمم . وألقى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ أواخر القرن السادس عشر على طرابلس وتونس والجزائر ، في هذه الحملات الناهية ، فرصة سانحة للغم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الحط والإقلاع في ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون إلى خزينة الباشا أو الداى عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الألوف من النصارى ، واستمرت هذه الغارات بعد ذلك عصراً (٢) .

(١) راجع فتح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) استمرت غارات القرصان في البحر الأبيض المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الأوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة البعض الآخر ، والأضرار بتجارتهما =

وحدثت في تلك الآونة التي اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطئ الإسبانية ، في أوائل عهد فيليب الثالث ، في عدوة المغرب أحداث أخرى ، زادت في توجس السياسة الإسبانية ، من مساعي الموريسكيين في استعداد مسلمي إفريقيا . ذلك أن الحرب الأهلية نشبت في مراكش ، بين السلطان زيدان بن المنصور وأخيه الشيخ المأمون ، وتعددت المعارك بينهما ، وانتهت بهزيمة الشيخ . ففر الشيخ مع أسرته وأمه الخيزران إلى إسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بتقديم ثغر العرائش إلى إسبانيا نظير معاونته . وكان ذلك في أوائل سنة ١٦٠٨ ( ١٠١٧ هـ ) (١) . وهنا أرسل الموريسكيون في بلنسية ، رسلهم إلى مولاي زيدان ، يوضحون له سهولة غزو إسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد لأن يقدموا له مائتي ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو واحتلال أحد الثغور الإسبانية الهامة ؛ ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده (٢) . واستجاب فيليب الثالث لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض سفنه إلى شاطئ المغرب ، واستولى الإسبان على ثغر العرائش ، فاشتد السخط على الشيخ ، وانفض عنه كثير من أنصاره ، وما زال الشيخ في مغامراته حتى قتل على مقربة من تطاون ( تيطوان ) سنة ١٠٢٢ هـ ( ١٦١٣ م ) ، وانتهى بذلك أمره (٣) . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته في سنة ١٠٣٧ هـ ( ١٦٢٧ م ) أعنى بعد نفي الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاماً ، في كفاح دائم مع إسبانيا ، وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة ، أن غنمت السفن الإسبانية في مياه المغرب ، مركباً لمولاي زيدان شحنت بالتحف ، وبها ثلاث آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة (٤) ، وحملت هذه الكتب إلى إسبانيا ، وضمت فيما بعد إلى مجموعة الكتب الأندلسية بقصر الاسكوريال

ومنذ القرن السابع عشر تعمل إنجلترا وهولندا وفرنسا على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها ، وذلك بمهاجمة الشواطئ المغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر . على أنها لم تنقطع نهائياً إلا بعد أن غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها في سنة ١٨٣٠

(١) راجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٢ .

(٢) Dr. Lea: The Moriscos; p. 289 & 290

(٣) الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٦ .

(٤) الاستقصاء ج ٣ ص ١٣٠ .

# الفصل الخامس

## مأساة النفي

قضية الموريسكيين مشكلة قومية لاسبانيا . استجابة العرب المنتصرين الى شعب جديد . تشعب الآراء حول التخلص منهم . ولاية فيليب الثالث . مشروع دوق دى ليرما للقضاء على الموريسكيين . مقترحات المطران ريبيرا . مجلس الدولة يبحث مشروع نفي الموريسكيين . مقترحات اللجنة الملكية . قرار مجلس الدولة . الاستعداد للتنفيذ . صدور مرسوم النفي النهائي . ما يحتويه المرسوم من الأحكام . موقف الموريسكيين . تظلم المدجنين . بدء التنفيذ في بلنسية . الرحيل الى وهران وتلمسان . المنفيون من لقنت . مقاومة الموريسكيين في بعض الأنحاء . اعلان قرار النفي في قشتالة . احصاءات عن المنفيين . اعلان قرار النفي في غرناطة . اعلانه في باقى الجهات . تفرق المنفيين في مختلف الثغور . الاعتداء على المنفيين . عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا . رواية المقرئ عن مأساة النفي . روايات عربية أخرى . آثار الموريسكيين الأخيرة في اسبانيا .

تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المنتصرين ، واعتبارهم خطراً قومياً يجب العمل على درئه والتخلص منه . وكان هذا التوجس يزيد على كراهة الأعراف ، وتذكية الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولاسيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات القرصان على الشواطىء الإسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمى إفريقية وبلاط قسطنطينية ؛ وسواء أكان هذا الخطر حقيقياً يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر فى تصوره ، فقد غدت قضية العرب المنتصرين ، غير بعيد فى نظر السياسة الإسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التدرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجحها .

وكانت السياسة الإسبانية ، تعزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطواتها الحاسمة ، فى شأن الموريسكيين . وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضى المحيد سوى ذكريات غامضة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا

أبناء فريش ومُضر بحكم القوة والإرهاق ، نصارى يشهدون القداس في الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك في معزل ، وأبنت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية . وكانت ماتزال ثمة منهم جموع كبيرة في بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة ، وكانوا مايزالون رغم العسف والإرهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ، قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصراً بارزاً في إنتاج اسبانيا القوي ، ولا سيما في الصناعات والفنون . ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية البغيضة في كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى ، ومن ورائه الأحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبداً وصمة في نقاء النصرانية ، ويتصور الإسلام دائماً يجرى كالدم في عروقهم .

وقد تضاربت آراء الساسة والأحبار الإسبان ، في شأن الخطوة الحاسمة التي يجب اتخاذها ، للقضاء على خطر الموريسكيين . ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم . وكان مما اقترحه المطران ريبيرا أن يُقضى عليهم بالرق ، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل في السفن ومناجم الهند ، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ؛ وذهب البعض الآخر إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة ، أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقيين وبيعهم عبيداً ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثاني أن يجمع الموريسكيون ، ويحملوا على السفن ثم يغرقوا في عرض البحر (١) . واستمرت السياسة الإسبانية حيناً تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفي فيليب الثاني (سنة ١٥٩٨) وخلفه ولده فيليب الثالث . وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأي والإرادة ، يتأثر كأبيه بنفوذ الأحبار ، وينحضع لوحى وزيره وصفيه الدوق دى ليرما . وكان الدوق من أشد أنصار فكرة القضاء على الموريسكيين ، وقد أشار بها منذ سنة ١٥٩٩ ، ووضع لتنفيذها مشروعاً ، خلاصته أن الموريسكيين إنما هم عرب ، ويجب أن يعدم الشبان والكهول منهم ، ما بين الخامسة عشرة والستين ، أو أن يسترقوا ويرسلوا للعمل

في السفن ، وتزع أملاكهم . أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ، فينفوا إلى المغرب ، وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا في المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سراً لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين في اسبانيا .

وفي سنة ١٦٠١ قدم المطران ريبيرا إلى الملك ، مذكرة يقول فيها إن الدين هو دعامة المملكة الإسبانية ، وأن الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وأن كل وسيلة للرفق بهم قد فشلت ، وأن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، إلى أخطار كثيرة ، وتتكدب في رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، وإخماد ثوراتهم ، كثيراً من الرجال والمال . ثم يقترح أن تؤلف محكمة سرية من الأحرار ، تقضى بردة الموريسكيين وخيانتهم ، ثم تحكم علناً بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك في ذلك ولا حرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يرى أن يسير في تحقيق غايته سراً ، وألا تصطبغ اجراءاته في ذلك بالصبغة الدينية .

ومضت بضعة أعوام أخرى ، والفكرة تبحت وتختمر وتتوحد ، حتى كانت حوادث المغرب في أواخر سنة ١٦٠٧ ، وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاي زيدان ومشاريعه لغزو اسبانيا ، وعزمهم على الثورة . عندئذ بادر مجلس الدولة بالإجماع في أواخر يناير سنة ١٦٠٨ ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحث جميع الاقتراحات ؛ وكرر المطران ريبيرا اقتراحه بوجوب نفي الموريسكيين إلى المغرب ، وقال بأن النفي أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الأعضاء الآخرين ، وذكروا أن نفي الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لأنهم يتكاثرون بسرعة ، بينما يتناقص عدد النصراري القدماء . وبحث تفاصيل المشروع ووسائله ، وما يجب اتخاذه من التحولات لضمان تنفيذه ، خصوصاً وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب إلى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج في سرقسطة وبلنسية . وكانت الخطوة التالية أن معهد بدرس المشكل كله ، إلى لجنة خاصة على رأسها الدوق دي ليرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ؛ وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهراً لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا إلى حيث شاءوا ، فن جاز منهم إلى إفريقية منح السفر الأمين ، ومن جاز إلى أرض نصرانية أوصى به خيراً ،

ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة ، عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الأسس في ذاتها ، على أن هذه الأسس الرفيعة نوعاً لم يؤخذ بها .  
وفي يناير سنة ١٦٠٩ بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريراً ينصح فيه بوجوب نفي الموريسكيين ، لأسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراکش وغيرها ، وقيام الأدلة على أن الموريسكيين جميعاً خونة مارقون ، يستحقون الموت والرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم ، وتكتفي بنفيهم من أراضيها . وتقرر أن ينفذ المشروع كله في خريف هذا العام ، وأرسلت الأوامر إلى حكام صقلية ونابولي وميلان ، باعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم ، واجتمعت منذ أوائل الصيف في مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط .  
وهكذا انتهت السياسة الإسبانية بعد فترة من التردد ، إلى اتخاذ خطواتها الحاسمة في القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيها القديمة ، في « تطهير » اسبانيا نهائياً من آثار الإسلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفحة الأخيرة لشعب عظيم تالد .

وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ أعلن قرار (مرسوم) النفي النهائي للموريسكيين أو العرب المنتصرين ، فساد بينهم الروح والإضطراب ، واليك نصوص هذا القرار الشهير في صحف المآسي والاستشهاد :

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصاهم بأعداء اسبانيا ، وانخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب) . وبناء على ذلك فإنه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أولادهم ، في ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى إلى الثغور التي يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ، وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطيع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة باطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة في أماكنهم زهن إشارة المأمورين ، ومن وجد منجولاً

بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الإعدام في حالة المقاومة . وقد منح الملك للسادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التي لم تحمل ، فاذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفنها ، أو أضرم النار في المنازل أو المحاصيل ، عوقب جميع سكان الناحية بالموت . ونص القرار على استبقاء ستة في المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم في صون المنازل ، ومعامل السكر ، ومحصول الأرز ، وتنظيم الري ، وإرشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة ، من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية . أما الأطفال فاذا كانوا دون الرابعة ، فانه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا ( كذا ) ورضى آباؤهم أو أولياؤهم ، وإذا كانوا دون السادسة ، سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء ، ( أعني من غير العرب المتنصرين ) ، وسمح كذلك بالبقاء لأمههم الموريسكية ، فاذا كان الأب موريسكياً والأم نصرانية أصيلة ، نفي الأب وبقى الأولاد الذين دون السادسة مع أمهم . كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » إذا زكاهم القسس . وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم . ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام . كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، أن يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل ، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم . وأخيراً نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكي يشرحوا لإخوانهم كيف تم النقل إلى المغرب على أحسن حال .

وقع قرار النفي على الموريسكيين وقع الصاعقة ، وسادهم الوجوم والذهول . وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، ونهكت قواهم ، ونضبت مواردهم . وكانت الحكومة الإسبانية قد اتخذت عدتها للطوارئ ، وحشدت قواتها في جميع الأنحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم في بلنسية ، وقرروا أنه لا أمل في المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع ، واستقر الرأي على أن يذهبوا جميعاً ، وألا يبقى منهم أحد ، حتى ولا نسبة الستة في المائة التي سمح ببقائها ، وأن من بقي منهم اعتبر مرتدّاً مارقاً . ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ، وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة في المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت في الأنحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخذت حركاتهم بسرعة وقتل منهم عدد جم .



الملك فيليب الثالث

( عن صورة فيلاستكيس )

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفي ، وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعاً قبل التنصير الإجباري ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شيء ؛ فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلامتهم ، وأن يسمح بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص (١) .

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا في بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الأسواق ، من المشاية والمحجوب والسكر والعسل والملابس والأثاث وغيرها ، لتباع بأبخس الأثمان . وبدىء بتنفيذ قرار النفي في الجهات التي نشر فيها أولاً ، وهي أعمال بلنسية منذ أوائل أكتوبر (سنة ١٦٠٩) . وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس ، حملوا إلى ثغر وهران في الضفة الأخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الإسبان ، ثم نقلوا إلى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهناك استظلوا بحماية السلطان ؛ وعاد البعض منهم إلى اسبانيا ليروي عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا في أمن وسلام . ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، على سفن غير التي عينتها الحكومة ، لنقل المهاجرين وإطعامهم دون أجر ؛ واضطرت الحكومة لتلقاء ذلك ، أن تستدعي عدداً كبيراً من السفن الحرة ، إلى مياه بلنسية ؛ ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألف ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ؛ ورحل المنفيون من ثغر ألفت على عزف الموسيقى ونشيد الأغاني ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد ؛ ولما سئل فقيهه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب بأنهم كثيراً ما سعوا إلى شراء قارب أو سرقته ، للفرار إلى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجاناً ، لا ننتهزها للعود إلى أرض الأجداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهناك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيد أكما كنا ؟ .

وكانت الجنود تحرس المنفيين في معظم الأحوال ، حماية لهم من جشع النصارى الإسبان الذين انتظموا في عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحياناً . وفضلاً

عن ذلك فان تنفيذ قرار المنفى لم يجر دائماً في يسر وسهولة ، فقد رأينا أن كثيراً من الموريسكيين في المناطق الجبلية أبوا الخضوع للأوامر لعدم ثقتهم في ولاء الحكومة ، وفضلوا المقاومة حتى الموت ، واحتشدوا بالأخص في « وادي أجوار » حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفاً ، وفي مويلادى كورتيس حيث اجتمع نحو تسعة آلاف . فبادرت قوات الحكومة بمحاصرة وادي أجوار وفتكت بالموريسكيين العزل ، وقتلت منهم بضعة آلاف ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد . وأخيراً سلم من بقي منهم وحملوا قسراً إلى ميناء السفر ، وسبي الجند منهم كثيراً من النساء والأطفال ، باعوهم رقيقاً ، ولم يصل منهم إلى شواطئ المغرب سوى القليل . وفي مويلادى كورتيس لم يبق منهم عند الإبحار سوى ثلاثة آلاف ؛ ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة ، وتبث الإضطراب نحو عام حتى قضى عليها (١) .

وصدر قرار النفي في قشتالة في ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩ . ولكن أُجل تنفيذه حتى ينفذ أولاً في بلنسية ، ولم ينفذ بالفعل إلا في أواخر ديسمبر ، ومنح الموريسكيون فيه شهراً للسفر بنفس الشروط التي تضمنها قرار النفي في الأندلس ؛ وسافر منهم في اتجاه الشمال إلى حدود فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة ، وسافر إلى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر إلى الأراضي النصرانية ، وذلك لكي يحتفظوا بأولادهم الصغار ، ولكن تسرب الكثير منهم إلى الثغور المغربية .

وبلغ عدد المنفيين في الثلاثة أشهر الأولى زهاء مائة وخمسين ألفاً ، وسافر منهم ألوف كثيرة من الأغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين في أراجون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفاً ، إلى ولاية نافار الفرنسية ، ودخل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفاً ، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون ، بشرط بقائهم على دين الكاثوليكية وأن تهيب السفن لمن أراد السفر منهم إلى شواطئ المغرب .

أما في غرناطة وأندلس ، فقد أعلن قرار النفي في ١٢ يناير سنة ١٦١٠ بعد أن عدلت بعض أحكامه ، وفيه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوماً ، ويباح لهم أن يبيعوا سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، على أن يقتنى به عروض أو بضائع

اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، إلا ما يكفي نفقات الرحلة بالبر والبحر . وأما الأملاك العقارية فتصادر بلجة العرش . وقد استقبل الموريسكيون في الأندلس قرار النفي بالاستبشار والرضى ، ويقدر من نرح منهم إلى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نرح معظمهم إلى مراکش .

ثم توالى إعلان قرار النفي ، في جميع الجهات التي تضم مجتمعات موريسكية ، في سائر أنحاء المملكة الإسبانية . في قطلونية وأراجون في مايو سنة ١٦١٠ ، ثم في إشبيلية واسترامادوره ، ثم في مرسية وغيرها . وتأخر تنفيذه في مرسية نحو أربعة أعوام حتى يناير سنة ١٦١٤ ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفاً ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال إلى الثغور الجنوبية .

واتجهت بعض الجماعات منهم إلى الثغور الإيطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت إلى مصر والشام وقسطنطينية (١) . وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم في أرض فرنسا من الإعتداء والنهب ، فأرسل إلى ملكتها ( وهي يومئذ ماري دي مديتشي الوصية على ولدها لويس الثالث عشر ) يحتج على هذا الإيذاء ، ويطلب حماية المنفيين (٢) . وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا نحو المشرق ، بعض طوائف اليهود الأندلسيين ، ولاسيما طائفة « الحسدِيم » التي ما زالت تقيم حتى اليوم في قسطنطينية ، وقيم بعضها في مصر .

ونفذ قرار النفي في كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً تحمل أكداً من تلك الكتلة البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا ، وهناك ، في مختلف الثغور الإفريقية ، في عمر من المناظر المروعة المفجعة .

وقد رويت روايات كثيرة محزنة عن مصير بعض جماعات المنفيين ، فإن الذين نزلوا منهم في وهران ليسيروا منها إلى داخل البلاد المغربية ، اعتدت عليهم بعض العصابات الناهبة ، لما كان معروفاً من أنهم يحملون أموالاً وحلياً نفيسة ، وسي كثير من نساءهم . وقد كان منهم في الواقع كثير من الأغنياء والأشراف القدماء ،

(١) المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 364

ولاسيما من أهل إشبيلية ؛ وكتب الكونت أجويلاز حاكم وهران ، أن كثيرين منهم بقوا في وهران ، خوفاً من اعتداء الأعراب ، وقيل إن ثلثي القادمين إلى وهران أو أكثر من ذلك ، هلكوا من المرض أو نتيجة الاعتداء ، ومن ثم فإن كثيرين منهم عادوا إلى اسبانيا ، وانتمسوا إلى السلطات أن يبقوا نصارى وأن يكونوا عبيداً . وقد ألقي هؤلاء بعض الأسر التي قبلت استرقاقهم ، واعترض على ذلك رجال الدين ، وصدرت الأوامر برفض نزولهم إلى الشواطئ الإسبانية ؛ ولكن كثيرين تسربوا إلى أنحاء بلنسية وغيرها ، وبقوا في اسبانيا رغم جميع الجهود التي بذلت لإخراجهم (١) .

وقد اختلف المؤرخون أيما اختلاف ، في تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقاً لقرار النفي ، ويقول نافاريتي وهو من أعظم مؤرخي اسبانيا ، إنه قد نفي من اسبانيا في مختلف العصور ، نحو مليونين من اليهود ، وثلاثة ملايين من الموريسكيين . ويقدر آخرون المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتي مؤرخ « ديوان التحقيق » بمليون ، ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد من نفي من الموريسكيين لا يمكن أن يتجاوز نصف مليون ، وقد كان مجموعهم في أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبنا قدمنا . ويقدر من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفي بنحو مائة ألف نفس (٢) .

وقد عاد معظم الموريسكيين ، الذين نفوا إلى إفريقية والمشرق ، إلى الإسلام دين الآباء والأجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب ، والإرهاق المستمر جذوة الإسلام في نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا في أعماق سرائرهم . وبذلك ينتهي الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتطوى إلى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات .

(١) Lea : The Moriscos ; p. 363 & 364 . وراجع نفتح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) راجع : Lea : The Moriscos ; p. 259 .

وتقدم إلينا الرواية الغربية ، تفاصيل ضافية عن مأساة الموريسكيين ، منذ بدايتها إلى نهايتها ، وتخصها بكثير من التعليق والنقد . ولكن الرواية الإسلامية مقلدة في هذا الموطن ، شأنها في تاريخ الأندلس منذ سقوط غرناطة ، فهي لا تعنى بتتبع مصير العرب المنتصرين ، كما تعنى الرواية الغربية ، ولا تقدم إلينا عن مأساة النفي سوى إشارات موجزة .

وقد صدر قرار النفي كما قدمنا في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، وهو يوافق جمادى الثانية سنة ١٠١٨ هـ . ولكن الرواية الإسلامية تضع تاريخ القرار في سنة ١٠١٦ هـ أو ١٠١٧ هـ ، وهو تحريف واضح .

قال المقرئ مؤرخ الأندلس ، وقد كان معاصراً للمأساة : « إلى أن كان إخراج النصرى إياهم ( أى العرب المنتصرين ) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتلطط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا البلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحي تونس ، فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمرووا قراها الحالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد في البحر ، ماهو مشهور الآن . وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذه الحال . ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى ، وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت » (١) .

وقال ابن دينار التونسي ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاماً ، في أخبار سنة ١٠١٧ هـ : « وفي هذه السنة والتي تلتها ، جاءت الأندلس من بلاد النصرى ، نفاهم صاحب اسبانية ، وكانوا خلقاً كثيراً ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمرُوا حيث شاءوا ، فاشترى الهناشير ، وبنوا فيها ، واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا في عدة أماكن ، وعمرُوا

(١) فتح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من أهل البلاد » (١) .

وقال صاحب الخلاصة النقية ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفي سنة ست عشرة وألف ، قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغتنب بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم » (٢) .

وهذه النصوص الموجزة ، هي كل ما تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن نبي العرب المنتصرين . وقد لبثت رواية المقرئ عن المأساة ، مصدراً لكل ما كتبه الكتاب المتأخرون (٣) . وربما كان هذا النقص راجعاً إلى أنه لم يعن أحد من كتاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الإضافية المؤثرة عن المأساة ، أو لعله قد ضاع ما كتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، مما كتب عن المراحل الأخيرة لتاريخ الأندلس والعرب المنتصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقرئ سوى لمحات يسيرة .

وهكذا بذلت اسبانيا كل ما وسعت لإخراج البقية الباقية ، من فلول الأمة الأندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين إلا اتخذتها . ومع ذلك فإن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النبي بصورة نهائية . فقد رأينا أن كثيرين من المنفيين قد عادوا إلى اسبانيا ، فراراً مما لقوا في رحيلهم من ضروب الإعتداء المفزع ، وأسلموا أنفسهم رقيقاً يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من الأسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون في المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقاً في اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه صدر قرار يحظر وجودهم في العاصمة الإسبانية ، فانه كان من الصعب إخراجهم من المملكة ، نظراً لما ترتب لأصحابهم عليهم من الحقوق . وكان البعض منهم يفلح في ابتياع حرته ، ويعيد حياة الموريسكيين سرّاً ، وأخيراً توجست الحكومة الإسبانية من وجودهم ، فصدر في سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم ، خلال المدد التي يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم إلى إفريقيا .

(١) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس (تونس) ص ١٩٣ .

(٢) الخلاصة النقية (تونس) ص ٩١ .

(٣) راجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠١ ، حيث تنقل هذه النصوص .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، أن يبقى في البلاد أحد من الموريسكيين أو سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم أو أشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب . وكان من المتعذر أن يفلت أحد منهم من بطش ديوان التحقيق . وكان الديوان المقدس أبدا على أهبة لضبط أية قضية ضد موريسكي محتف أو عبد متنصر ، لكن هذه القضايا كانت نادرة مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضى الزمن . بيد أن أسرى المعارك البحرية الذين كانوا يكرهون على التنصير ، كان بعضهم يندب النصرانية خفية ، وكان معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا إلى الإسلام ، وخرجوا إلى الجهاد في البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر يجد بينهم فرائس من آن لآخر . وعلى الحملة فان آثار الموريسكيين والإسلام لم تعف نهائياً من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الأسر والأفراد الموريسكيين ، الذين اندمجوا في المجتمع الإسباني ، على صلاتهم الخفية بالماضي البعيد ، وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر أمام محاكم التحقيق بعض قضايا لموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الإسلام خفية ، وضبط في سنة ١٧٦٩ مسجد صغير في قرطاجنة ، أنشأه المنتصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت مازال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والإسلام .

ولا تقدم إلينا محفوظات ديوان التحقيق منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أي ذكر للموريسكيين ، أو الإسلام والمسلمين ، مما يدل على أن الآثار الأخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت ، وأسبل عليها الزمن عفاءه إلى الأبد (١) .

على أن يقال أخيراً إنه مازالت ثمة إلى اليوم ، في بلنسية وفي غرناطة ومقاطعة لامنشا ، جماعات من الإسبان تغلب عليها تقاليد الموريسكيين في اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة (٢) .

والحقيقة أنه يصعب على الباحث أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقاً بكل ما لجأت إليه من الوسائل المغرقة ، أن تقضي نهائياً على آثار السلالة العربية والحضارة الإسلامية ، بعد أن لبثت ثمانية قرون تغمر النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ،

(١) Lea : The Moriscos p. 391 & 392

(٢) Lea : ibid ; p. 365

فان تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل ، أن تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصاً متى لبثت آماداً مختلفة متداخلة ، وعلى أن حضارة أمة من الأمم إنما هي خلاصة لتفاعل الأجيال المتعاقبة ، وفي وسع مؤرخ الحضارة أن يلمس في تكوين المجتمع الإسباني الحاضر ، وفي خصائصه وتقاليده ، وفي حياته الإجتماعية ، وفي حضارته على العموم ، كثيراً من الخلال والظواهر ، التي ترجع في روحها إلى تراث العرب والحضارة الإسلامية .

# الفصل السادس

## تأملات وتعليقات عن آثار المأساة

مأساة الموريسكيين وعلاقتها بانحطاط اسبانيا : آثار نفى الموريسكيين  
المخرية . ركود الزراعة وخراب الضياع الكبيرة . تأثر محاكم التحقيق .  
ذبوع العملة الزائفة . تقرير مجلس الدولة عن الاضطراب الاقتصادي .  
تعليقات الدكتور لى . خطأ السياسة الاسبانية . آراء التفكير الاسبانى . تأييد  
الأخبار لسياسة الإبادة . حملة دون لورنثى عليها . رأى الكردينال ريشليو .  
آراء المؤرخين الاسبان فى مأساة النفى . آراء المؤيدين لوقوعها . تعليقات بعض  
المتكبرين لها . أقوال جانر ولافونتى وبكاتوستى . تعليقات النقد الحديث .  
أقوال الدكتور لى . أقوال العلامة سكوت . أقوال المستشرق الاسبانى  
كوندى . تعليق المستشرق لاين بول .

تلك هى قصة الموريسكيين أو العرب المنتصرين : قصة مؤسفة تفيض بألوان  
الإستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الإباء والبسالة والجلد ،  
تخلق بأعظم وأتبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التى اتبعتها اسبانيا النصرانية  
واتبعها ديوان التحقيق الإسبانى ، إزاء العرب المنتصرين على كر العصور ، مثار  
الإنكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والإسبان أنفسهم ، حتى يومنا  
بأقسى النعوت والأحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على إبادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة  
لعظمة اسبانيا ورخائها ؛ ولم تهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ،  
بل انحدرت منذ نفى الموريسكيين ، من أوج عظمتها التى سطعت فى عصر شارلكان  
وفيليب الثانى ، إلى شجرة التدهور والانحلال التى مازالت تلازمها حتى عصرنا .

بل ترجع عوامل هذا الانحلال ، إلى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد ،  
أو بعبارة أخرى إلى السياسة التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الأمة الأندلسية ،  
منذ بداية عصر الغلبة والفتح ، فى أوائل القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد  
والولايات الإسلامية الزاهرة ، تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت

تفقد في نفس الوقت أهميتها العمرانية والإقتصادية ، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية ، فراراً من عسف النصارى ، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها ، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الإقتصادي . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين ، حتى سقطت غرناطة ، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية في المنطقة الجنوبية ، وفي بعض القواعد الأندلسية القديمة ، مثل بلنسية ومرسية ، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده ، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية ، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد ، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أو العرب المنتصرين . ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة ، عاملاً خطيراً في اقتصاد اسبانيا القومي ، وفي ازدهار زراعتها وتجارها وفنونها وصناعاتها . وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة ، وإلى نشاطهم ودأبهم ، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التي يملكها السادة الإقطاعيون . فلما اشتد بهم الإضطهاد والعسف ، وأخذت يد الإبادة تعمل لتزريق طوائفهم ، وسحق نشاطهم وقتل مواهبهم ، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية أخيراً خطواتها الحاسمة باخراجهم ، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الإنتاج الزراعي الذي برع الموريسكيون فيه ، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدي الماهرة ، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من أنشط عناصرها ، وركدت ربح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التالدة التي كانوا أساتذتها ، وغاضت الفنون الرفيعة التي استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضي الزمن نتائجها المخربة ، فتناقص عدد السكان ، وانكشفت المدن الكبيرة ، وذوى عمرانها ، وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت جهود الإصلاح والتقدم ، ولم يمض على إخراج الموريسكيين زهاء قرن ، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين ، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين ، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها ، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، ونجم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وإذا كان النقد الحديث ، ينوه بخطورة السياسة التي اتبعتها اسبانيا ، في إبادة

الامة الأندلسية ونفى الموريسكيين . كعامل قوى الأثر فيما أصاب اسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانهطاط ، التي لم تبرأ منها حتى عصرنا ، فإنه يعتمد في هذا الرأي على طائفة من النتائج المادية والأدبية ، التي ترتبت على « النفي » وحرمان اسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية ، التي كانت تتمتع بها الامة الأندلسية . وقد ظهرت هذه الآثار المخربة ، بالأخص في محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة ، وإيراد الكنائس والأديار ، دليلاً على ما أصاب قوة اسبانيا المنتجة ، الزراعية والصناعية ، بسبب نفي طائفة كبيرة ، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً . وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان ، كانوا يبغضون الأعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها أمراً شائناً ، وإن الإسباني لا يربى أولاده لمزاولة العمل الشريف ، وأن أولئك الذين لا يجدون عملاً في الجيش أو الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدى المؤرخ الإسباني الكبير نافاريتي أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة في عصره ، يتعلم فيها أبناء الفلاحين ، بينما تهجر الحقول ، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملاً في الكنيسة لتقص تعليمهم ، يحترفون التسول أو التشرذم أو السرقة . وقد كتب سفراء البندقية في القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحترقون العمل اليدوي ، حتى أن ما يمكن تلافيه في البلاد الأخرى في شهر ، يعمله الإسبان في أربعة أشهر (١) .

وقد كان النبلاء والأحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون في تعهد أراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم ، فلما وقع النفي جمد النشاط الزراعي ، ونحلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة نخلوها من السكان ، ولاسيما في منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء إلى استخدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنيه وقطلونية ؛ ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ في غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأراضي التي نزعوا ، وتعذر عليهم تعميمها وفلاحتها ، وحقاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة

أمواله ، هذا فضلاً عما أصاب طوائف السكان الأخرى ، التي كانت تتصل بالموريسكيين في المعاملات والتبادل من العسر والضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والأديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة أن تعول كثيراً من محاكم التحقيق ، التي أوشكت على الإفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التي كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها . وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن الملك استولى عليها ، ووزع معظمها على أصفياؤه من الوزراء والنبلاء والأحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها .

ويقدمون مثلاً لما أصاب إسبانيا من الحراب من جراء « النفي » ، هو مثل مدينة ثويداد ريال عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة الفونسو الحكيم في القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطاً حرة مغرية ، شجعت كثيراً من اليهود والمسلمين على النزوح إليها . وفي سنة ١٢٩٠م كان دافعوا الضرائب فيها من اليهود (٨٨٢٨) ، فلما أخرج اليهود منها في سنة ١٤٩٢ ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء ، خربت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها ، وخربت صناعة النسيج التي أنشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها في سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نفساً ونحو ألف أسرة فقط ، في حين أنها كانت تضم من السكان قبل « النفي » اثنتي عشرة ألف أسرة (١) .

وكان مما ترتب على نفي الموريسكيين أيضاً ، ذبوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة . وأحدث ذبوع النقد الزائف اضطراباً شديداً في المعاملات ، وحاولت الحكومة جمعه ، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام ، ولكنها لم تفلح في استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة أعواماً طويلة ، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف ، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيراً من الضرر والإرهاق .

ولم تمض أعوام قلائل على نفي الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها في حياة المجتمع الإسباني بصورة مزعجة ، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والحراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى ليرما في سنة ١٦١٨ ، إلى مجلس الدولة ، أن ينظر في هذا الأمر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ؛ وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام ، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ، ولكنه لم يشر إلى نفي الموريسكيين ، وإلى تكاثر عدد رجال الدين وتزيف العملة ، وبغض الشعب للعمل الشريف ؛ بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب ، وإلى الترف الذى تعيش فيه الطبقات الممتازة ، وإسراف الملك فى الإغداق على أصفياه ؛ وكذلك اهتم مجلس النواب ( الكورتيس ) بالأمر وقدم عنه تقريراً إلى الملك . ومع أن التقارير الحكومية التى وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر إلى نفي الموريسكيين كعامل أساسى فيما أصاب اسبانيا من الحراب والفقر ، فقد كان فى القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة . ففي سنة ١٦٢٢ أصدر الملك فيليب الرابع ، قراراً بخفض الضرائب فى بلنسية يشير فيه إلى هجرة السكان ، وإلى ما خسرت المدينة من ضروب الدخل ، التى كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون ، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم .

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئاً فى تخفيف هذه الضائقة ، التى طافت بالمجتمع الإسباني ، وشملت سائر الطبقات سواء فى الإنتاج أو الاستهلاك . ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التى أصابها .

يقول الدكتور لى : « إنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، فى القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية فى البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون أن ييث ذلك الحراب الواسع ، ويشير معتركاً من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة » .

ثم ينبغى على السياسة الإسبانية تحببها وقصر نظرها فيقول : « وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية فى ذلك العصر ، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشؤون ، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة ، التى جرت فى قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التى ينفذ بها النفي ،

وماذا يسمح به للمنفين ، وماذا يكون مصير الأطفال . ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية « (١) .

تلك هي النتائج المادية الواضحة ، الإقتصادية والاجتماعية ، التي جنتها اسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبنية لإبادة الأمة الأندلسية . فقد لبثت اسبانيا زهاء قرن ، تعمل بأقصى وسائل الإرهاق والمطاردة ، على استصفاء ما بقي من فلول الأمة الأندلسية ، فى الأرض التي بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والأمن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول ، إلى شرادم معذبة مهيبضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، أن تبقى عليها ، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت فى سبيل أسطورة من التعصب والجهالة ، أن تقضى عليها بالذشريد والننى النهائى ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من أفضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا أن جاء نفى الموريسكيين ، فى وقت أخذت فيه عظمة اسبانيا ورخاؤها ، ينحدران سراعاً إلى الخضيض ، وجنح المجتمع الإسبانى إلى حياة الدعة والحمول ، وأخذ سكانها فى التدهور ، فجاء نفى الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التي أخذت فى التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحاً عميقاً لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فانه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفى الموريسكيين ، ويعتبره عاملاً بعيد المدى فيما أصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والإنحلال .

على أن التفكير الإسبانى يختلف فى قبول هذا الرأى وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، وأكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفى الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الدينى ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا Bleda وهو مؤرخ معاصر فى تاريخه : « بأن عصر اسبانيا الذهبى بدأ بنهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وأنقذت من مشاغلها الداخلية ، وأن الننى كان أعظم حادث بعد بعث المسيح . واعتناق اسبانيا للنصرانية» .

ويقول حبر آخر : «لقد زعم الموريسكيون أن رخاء اسبانيا قد ذهب مذ أكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيم ، وازدهرت التجارة ، وساد الأمن في الداخل والخارج» (١) . ويقول الحبر قشتلتي دي لافونتي في تاريخه الديني أنه من السخرية أن يقال إن نبي الموريسكيين كان سبياً في انحطاط اسبانيا ، فان أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفاً في وباء أو حرب أهلية . ثم يتساءل في تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النبي كان سبياً في تدهور دخل الأشراف والكنائس (٢) .

ويرى آخرون من الأخبار أن اسبانيا قد دفعت بالنبي ثمناً باهظاً ، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل ، وإنه لا بأس من التقشف مع الإيمان ، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريسكيين أن يجدوا أعمالاً (٣) . ولكن حبرا ومؤرخا اسبانيا كبيراً ، هو دون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ونبي الموريسكيين في قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكي روح الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدي إليه معاملتهم بشيء من الإنسانية ، يزدادون مقتناً لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة ، وكان هذا سبب الإضطرابات التي أدت في سنة ١٦٠٩ إلى نفي هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهي خسارة فادحة لاسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة ، ففي مائة وتسع وثلاثين سنة انزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، مابين يهود ومسلمين وموريسكيين» (٤) .

ويقول الكردينال ريشليو الفرنسي ، وهو من أعظم أخبار الكنيسة في مذكراته وكان معاصراً للمأساة : « إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية » .

\* \* \*

وكذا اختلفت آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان في تقدير آثار النبي اختلافاً

(١) Lea : The Moriscos; p. 366

(٢) Lea: ibid, p. 394 & 396

(٣) Lea: ibid, p. 367

(٤) Llorente: Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne

بيناً ، فيبينها يرى البعض أن النفي كان إجراء طبيعياً ، وضروره لا محيص منها ، وينكر القول بأنه كان كارثة ، إذا بالبعض الآخر ينوه بفداحة الكارثة وفداحة آثارها المخربة ، ويعتبرها عاملاً قوياً في تدهور اسبانيا وانحلالها .

فمثلاً يقول دانفيلا أى كولادو : « إن فلسفة الواقعة تتخلص في أن الإنسانية والدين ، اشتبكا في معركة انتصر فيها الدين ، فلم يك ثمة سبيل لرحمة الموريسكيين . ولكن الوحدة الدينية سطعت سطوعاً رائعاً في سماوات اسبانيا . وما أسعد أمة تشعر كأنها شخص واحد في مشاعرها العظيمة ، وإنها الحرافة تاريخية أن يقال إن الموريسكيين كانوا عنصراً مفيداً في إنتاج اسبانيا ، ولو أنهم كانوا كذلك لحملوا الرخاء إلى بلاد المغرب حيث ذهبوا » (١) .

ويقول مينندس دى بلايو : « إن الواقعة إن هي إلا نتيجة محتومة لقانون تاريخي . وموضع الأسف فيها ، أن وقوعها تأخر كثيراً . فقد عمرت بلنسية بسرعة ، وتعلم السكان الجدد الزراعة ، واحتفظ بخطط الري البديعة حتى عصرنا . ومن الخطأ أن ننسب لهذه الواقعة تدهور الصناعة التي لم يأخذ الموريسكيون بقسط كبير منها . أما انحطاط اسبانيا فقد حدث قبل ذلك بقرن أعنى منذ اكتشاف أمريكا ، وهو الذي حول اسبانيا إلى بلد من المغامرين ، ثم إلى بلد من السادة المتسولين » (٢) .

أما جانر Janer فيرتفع بالعكس في تقديره لنشاط الموريسكيين وبراعتهم في الفنون والصناعة والزراعة ، ويتفق مع كامبومانس في كون انحطاط الصناعات الإسبانية يرجع إلى نفي الموريسكيين ، ويقول : « إن بلاد العرب الغناء ( ويعني اسبانيا ) قد حولت إلى بلاد العرب القفراء ، وحل بها القحط في كل مكان ، وخيم الركود والصمت المحزن ، مكان النشاط والحركة ، وحل محل الرواد والسياحة ، قطاع الطرق يغمرونها ، ويجدون ملاذهم في القرى المهجورة » . على أنه يرى مع ذلك أن النفي كان فقط أحد الأسباب التي أدت إلى تدهور السكان وانحطاط البلاد ، وقد كانا يعملان عملهما حينما وقع النفي ، فأذكى من عصفهما ، وعجل بوقوع الحراب . ذلك أن الشعب المحكوم عليه ، كان من أبرع الناس في الزراعة والصناعة ، وأوفرها

Lea: The Moriscos; p. 395 (١)

Lea: Ibid, p. 395 (٢)

إنتاجاً للأرض ، ولكن النفي كان بالرغم من ذلك ضرورة دينية وسياسية ، واليوم تغدو الوحدة الدينية أسطح جوهرية للأمة الإسبانية (١) .

ويرى موديستو لافونتي مؤرخ اسبانيا الحر في تاريخه العام ، أن النفي كان أشنع إجراء يمكن تصوره من الناحية الاقتصادية ، وأنه أنزل بالثروة القومية الإسبانية ضربة ليس من المبالغة أن نقول إنها لم تنهض منها بعد .

ويقدم لنا بكاتوستي ، الذي عكف على دراسة مشكلات عصر النفي ، في الموضوع رأياً يمتاز بدقته وطرافته ، فهو يعتبر نفي الموريسكيين أعظم الكوارث ، ويرى تبعة فيليب الثالث وأسلافه ، في أنهم لم يحافظوا على مصالح الموريسكيين المادية ، وأنهم لم يكن لديهم من القوة ما يكفي لقمع نزعاتهم الثورية ، وأن مضاعفة الضرائب واحتقار العمل والإضطهاد الديني ، وعسف محاكم التحقيق ، كانت تذكي بنخطهم على حكومة ضعيفة قصيرة النظر ، حتى أصبح هذا العلاج المغرق ضرورة لا محيص عنها . وقد ارتكب الكتاب والمؤرخون الذين دافعوا عن النفي ، أكبر الخطأ ، لأنهم نظروا فقط إلى ضرورة الساعة . ونحن إذا كنا نقر بضرورته السياسية ، فلسنا ننسى أن هذا الإجراء المحزن كان نتيجة لأخطاء الحكومة . أما عن نتائجه فإن تحلى الموريسكيين عن الزراعة ، وعن عديد الفنون والصناعات ، وما كان ينظر به إلى هذا الشعب وصناعاته من ضروب الإحتقار ، وتخبط حكومة لم تبذل جهداً لإيجاد البديل لهذه الصناعات ، وزيادة الضرائب لسد العجز الناشئ عن النفي ، كانت من أهم عوامل البؤس الذي حل باسبانيا ، وهو بؤس قد انتهى إلى درك لم ينحدر إليه أحط أجناس البشر ، هذا بينما كان البلاط يعج بأهبي الحفلات وأعظمها بذخاً (٢) .

ويعلق العلامة الدكتور لي ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله : « إذا كان نفي الموريسكيين كما يقول مينندس دي بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخي ، وإذا كان قد غدا ضرورة في عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقتها تعصب القرن السادس عشر ، وإذا

Lea: ibid; p. 395 & 396 (١)

(٢) بكاتوستي Picatoste في كتابه عن عظيمة اسبانيا واضمحلالها ونقله : Lea: ibid; p. 396

كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون في الأراضي الإسبانية ، من الأمور المأمونة ، وذلك في الوقت الذي كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطربة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، وإذا كان في وسع الملوك النصارى في هذه العصور المضطربة ، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فإن الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة ، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذي يخلقه التعصب . وقد كان هذا التعصب ، نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة . وهي التعاليم التي اعتنقتها اسبانيا منذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا إلى طريق التعصب ، حتى دفعه توعد المزاج الإسباني إلى نهايته المحتومة باكمال لانظير له . ولما قضت غطرسة الكردينال كمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين في عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الخطوة المحتومة في طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة . . . ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء في الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله في الظلم والاضطهاد وفضائح ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل في ظل المؤثرات الدينية ، التي غلبت على السياسة الإسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط كان يمكن العمل على إرضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية في قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيد سوءاً حتى غدوا إغراء دائماً لاتصال كل عدو من الخارج ، ومثاراً دائماً لخرع السياسة الإسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفي والإبعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلاً ، كوفنت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذي ترتب على جهود الكردينال كمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان من الميسور تداركها بسرعة لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التي مكنت أعمماً أخرى من أن تنهض من كوارث أشد . إن انحلال اسبانيا لا يرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان ، بنى اليهود والعرب المنتصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه

الحسارة ؛ ولكن الخطب يرجع إلى أن اليهود والعرب المنتصرين كانوا من الناحية الاقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معيناً لحياة الآخرين ، وبينما كانت أم أوروبا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام في مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل شيء في سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعاً إلى عمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للأخبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد فيها كل نزعة إلى الرقي العقلي ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجي ، ويشل فيها كل جهد يبذل في سبيل التقدم المادي . وقد كان من العيب أن تنهمر ثروات العالم الحديد ، إلى أيدي شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أي شعب آخر ، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم في طليعة الأمم الأوروبية ازدهاراً . ومهما كانت قيمة الخدمات التي أدتها إيزابيلا الكاثوليكية والكردينال كنيس ، فإن السوء في عملهما يفوق الحسن ، لأنهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هي أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت في سبيل هذه الغاية برخائهما المادي ورقبها العقلي » (١) .

وأخيراً يحمل الدكتور لي خلاصة بحثه المستفيض في مأساة الموريسكيين في هذه العبارة الموجزة القوية : « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التي اتحدت لتتحدر باسبانيا في زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها في عصر كارلوس الثاني » (٢) .

ويقول العلامة سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التي ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القحط إلى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة ، التي أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحاري ، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الحصب الأخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراعة والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب

Lea: The Moriscos; p. 395-397 & 399-401 (١)

Lea: The Moriscos p. V. (٢)

مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التي ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الأخير» (١) .

وكان المستشرق الإسباني كوندى ، وهو أول من عنى من الإسبان بدرس المصادر العربية والحضارة الأندلسية ، أشد كتاب اسبانيا المحدثين حماسة في تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب اسبانيا من جراء القضاء عليها . وهو يعاقب في خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين في تلك العبارات الشعرية المؤثرة :

« وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكي المستنير ، الذى أحى بهمته وجدته تلك الأراضي ، التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجذب ، فدر عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها عديد القنوات ، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معاً ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، فى مدنه صرحاً خالداً من الأنوار ، التى كان ضوءها المنبعث ينير أوروبا ، ويبت فيها شغف العلم والعرفان ، والذى كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لانظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه فى نظر الخلف ، لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ، ودهاناً سحرياً من البطولة ، يذكركنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان .

ولكن شيئاً لا يدوم فى هذا العالم . فان هذا الشعب قاهر القوط ، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون ، إلى أقصى الأجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح ، وعبثاً بسائل اليوم السائح الفريد ، قفار الأندلس المحزنة ، التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب فجأة فى اسبانيا ، كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه ، وينشر لهبه فى جنبات الأفق ، ثم يغيب سريعاً فى عالم العدم ، ظهروا فى اسبانيا فلأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلمها كوكب من المجد شملها من البرنيه إلى صحرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطئ برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ، وحقاً متقلباً يميل إلى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، ويميل نكد إلى التمرد والثورة ، يثيره دائماً خيال ملتهب ، وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها ، من عوامل الإضمحلال ، قد عملت شيئاً فشيئاً ، على

Scott: The Moorish Empire in Europe; V. III. p. 328 (١)

هدم ذلك الصرح العتيد ، الذي شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد ابن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية ، فالت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء . .

خرج ملايين العرب من اسبانيا ، حاملين أموالهم وفنونهم ، ثروات الدولة ، فإذا أنشأ الإسبان مكانهم ؟ لانستطيع أن نجيب بشيء ، إلا أن حزنا خالدا يغمر هذه الأرض ، التي كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبايع . أن ثمة بعض الآثار المشوهة ، ما زالت تقوم في هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد للعربي المغلوب ، والانحلال والبؤس للاسباني الظافر» (١).

ويقول الأستاذ لاين پول في مقدمة كتابه عن « العرب في اسبانيا » : « لبثت اسبانيا في يد المسلمين ثمانية قرون ، وضوء حضارتها الزاهرة يبهير أوروبا ، وازدهرت بقاعها الحصبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة في سهول الوادي الكبير ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد ، سوى الأسماء والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون ، دون سائر الأمم الأوربية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفاكية والنباتية ، والتاريخ والفلسفة والتشريع ، إلا في اسبانيا المسلمة ، فكل ما يدعو الى عظمة أمة وسعادتها ، وكل ما يؤدي إلى رقي باهر وحضارة سامية ، فاز به مسلمو اسبانيا .

ثم ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت المدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية ، فوق الأرض التي كان ينعشها بحارته . ثم تضاعلت عظمة عصور فرديناند وإيزابيلا ، وشارل الخامس ، وفيليب الثاني ، وكلمبوس وكورتيس وبيزارو ، لتموت بموتها دولة عظيمة ، ثم خفقت أعلام الحراب بسيادة ديوان التحقيق ، وسادت اسبانيا بعد ذلك ظلمة حالكة ؛ فأصبح لايعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور . . . وقضى على فنون إشبيلية وطليلة والمرية وعفت صناعاتها ، وسحقت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدائن الكبيرة ، وذوت نضرة الوديان الحصبة ، فحل البؤساء والداهم والصوص ، مكان الطلاب والتجار والفرسان : ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد إقصائها العرب ، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها» (٢).

(١) كوندى في تاريخه : الترجمة الفرنسية ( بقلم De Marlès ) الجزء الثالث ص ٤٠٤ — ٤٠٦

(٢) Lane-Poole: The Moors in Spain

الكتاب الرابع

نظم الحكم

والحياة الإجتماعية والفكرية

في مملكة غرناطة

# الفصل الأول

## نظم الحكم في مملكة غرناطة

### وخواصها الإجتماعية

مكانة الحضارة الأندلسية • ذوبها عقب انهيار الخلافة • انتعاشها أيام الطوائف • ركودها أيام المرابطين وانتعاشها أيام الموحدين • ابن ميمون وابن رشد • الاضطهاد الفكري أيام الموحدين • الآداب والفنون في هذا العهد • مملكة غرناطة وخواصها الطبيعية • دولة بنى الأحمر أو الدولة النصرية • شعارها الحكم المطلق • الوزراء الطغاة • أخطار هذا النظام • حمية الشعب الغرناطي • مناصب الحكم الرئيسية • الوزارة والكتابة • قيادة الجيوش • الجيش والأسطول • قاضي الجماعة أوقاضى القضاة • الحسبة • صاحب الشرطة • إقليم غرناطة ومواردها • تقدم الري والزراعة • غرس الحدائق • بسائط غرناطة • الصناعات الأندلسية • التجارة الخارجية • الموارد السلطانية • الضرائب • تكوين الأمة الأندلسية • أحوال المجتمع الأندلسي • الفروسة الأندلسية •

تعرض لنا الحضارة الأندلسية ، صفحة من أجمل وأروع صحف الحضارة الإسلامية ، والحضارة الإنسانية ، بصفة عامة . وقد نشأت حضارة الإسلام في الأندلس في بيئة وظروف خاصة ، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والإجتماعية ، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة .

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية ، في تاريخ الحضارات الأوروبية مكانة رفيعة ، وتملاً فراغاً كبيراً . ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس في المصادر الإسلامية ، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية . وأغلب ما كتب عنها في مصادرنا ، شذور ونبد متفرقة غير متناسقة ، وتراجم لأعلام التفكير والأدب لم يعن فيها بدراسة الجوانب الهامة . وانه لمن الإسراف أن نقول ، إننا نستطيع أن نستعرض هذه القصة الباهرة المتعددة النواحي ، في فصل أو فصول ، من سفر يخصص لكتابة تاريخ المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية . على أننا سوف نحاول مع ذلك أن نستعرض صور الحضارة الأندلسية في ظل مملكة غرناطة ، استكمالاً لموضوعنا ،

وأن نلتقى بذلك شيئاً من الضياع على النظم والأحوال ، التي عاشت في ظلها الأمة الأندلسية في مراحلها الأخيرة ، وما انتهت إليه في ميدان التفكير والآداب والفنون . وكما أن مصادرنا الإسلامية في هذا القسم من تاريخ الأندلس قليلة ضئيلة ، فهي كذلك بالنسبة لصور الحضارة الأندلسية ، وقد هلكت معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذا العصر ، كما رأينا على يد الإسبان . ولم يسعفنا في ذلك سوى بعض الآثار القليلة الباقية ، التي نجت من المحنة ، ولا سيما آثار ابن الخطيب ، وما نقله إلينا المقرئ عن آثار ووثائق ضاعت ، وكان له فضل إيصالها إلينا .

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسي ، يقدم إلينا صورة المتباينة ، من الإضطراب والركود ، والقوة والضعف ، فكذا شأن الحضارة الأندلسية ، فقد وصلت في ظل الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسي ، إلى ذروة القوة والبهاء ، وإن لم تصل يوماً إلى ذروة نضجها الفكري . ولما انهارت الخلافة الأموية ، واطماحت النظم السياسية والاجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس ، وهلكت معظم الآثار العمرانية والفكرية في عصر الفتنة ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين ، حتى قامت دول الطوائف فوق أنقاض الدولة الأموية ، واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها وتطاحنها في ميدان الحزب ، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ؛ وسطعت آيات الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ، وفي مجتمعاتها ، وأبنت في ظلها دولة التفكير والأدب ؛ وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها ، طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها ، مثل الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ( ١٠٦٤ م ) وابن حيان أعظم مؤرخي الأندلس ، وقد توفى سنة ٤٦٩ هـ ( ١٠٧٦ م ) وتلميذه الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ( ١٠٩٥ م ) . ومن الأدباء والشعراء ، ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ ( ١٠٦٩ م ) وابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م ) وعشرات آخرين من الكتاب والشعراء ، يقدمهم إلينا الفتح بن خاقان في مؤلفه « قلائد العقيان » . بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء والشعراء ، مثل الأمير العالم عمر بن الألفطس

صاحب بطليوس ، والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتمد بن صمادح صاحب ألمرية (١) . ولكن سرعان ما انكشبت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) . وكان أولئك البربر الصحريون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الجندية والحشونة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة ، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، فركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب ، وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل سطعت في ظل دولتهم القصيرة بعض الشخصيات اللامعة ، مثل أبي القاسم خلف ابن عباس القرطبي الطبيب الأشهر ، المتوفى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) وابن باجة الطبيب الفيلسوف ، المتوفى سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، وأبو بكر الطرطوشي الفيلسوف السياسي ، صاحب كتاب «سراج الملوك» ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، والفتح ابن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنتمري صاحب «الذخيرة» المتوفى في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، وابن قرمان أمير الموشحات الأندلسية ، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) . ولكن ظهور هؤلاء وأضرابهم في هذه الفترة ، لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية في ظل دول الطوائف

وفي ظل دولة الموحدين ، التي خلفت دولة المرابطين في حكم الأندلس ، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي . وقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الحشونة والتقشف ، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وأكثر قبولاً لثمار التمدن . وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية . إذ كان مؤسسها المهدي ابن تومرت ، من أئمة التفكير الديني . وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث ، وكانت قد صفدت في عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكري المشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس . وفي تلك الفترة بالذات أعنى في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري ، بلغ التفكير الأندلسي ذروة النضج ، وتفجرت ينابيع النبوغ ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب ، وفي طليعتهم أبو مروان عبد الملك

(١) توفي ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ؛ وتوفي ابن عباد في الأسر سنة ٤٨٨ هـ؛

وتوفي المعتمد بن صمادح في سنة ٤٨٤ هـ .

ابن زهر الإشبيلي الطبيب ، المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ، وأبو جعفر بن الطفيل الإشبيلي ، المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) ، وهو صاحب رسالة حى بن يقظان الشهيرة ، والإمام الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، المتوفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي القرطبي ، المتوفى سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٥م) .

وفي حياة ابن ميمون وابن رشد بالأخص ، ما يمثل لنا طرفاً من سياسة الموحدين تجاه التفكير ، وتردها بين التسامح والاضطهاد . فقد كان ابن ميمون من أعظم الأطباء والفلاسفة في عصره ، ولكنه اضطهد ليهوديته خلال الاضطهاد العام ، الذي لقيه اليهود في ظل عبد المؤمن خليفة الموحدين ، فغادر الأندلس إلى المشرق . ونزل بمصر وخدم بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين . وندب للتدريس بالقاهرة . وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكره في ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) واتصل منذ فتوته بأبي يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن ، المشرف على شئون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء ، وبرع ابن رشد في الفقه والطب والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية في سنة ٥٦٥هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة ، واستمر زهاء خمسة وعشرين عاماً ، يتقلب في مناصب القضاء والإدارة ، في ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب . وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص لأبي يعقوب يوسف ، ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ، وأتمه بعض خصومه بالزندقة ، فبنى إلى الأندلس بجوار قرطبة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم استرد مكانته في أواخر حياته . واستدعى ثانية إلى مراکش ، حيث عفا عنه السلطان المنصور . وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، في المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية في العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والحلك ، قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد في الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التي ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربي . بل يرى مؤرخو الفلسفة أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التي كانت

مستودعاً لترات الفلسفة اليونانية . ولا بن رشد طائفة كثيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية .

وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطراً في ظل حكومة الموحدين . وقد رأيت ما كان من اضطهاد ابن رشد وسجنه بسبب آرائه الفلسفية ، وقد كان من ضحايا هذا الاضطهاد . في هذا العصر ، مفكر أندلسي آخر هو ابن حبيب الإشبيلي ، الذي اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية ، أيام المأمون بن المنصور ، وقتل لهذا السبب (١) . وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة ، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكري العصر .

وظهر في تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، جمهرة من أقطاب الأدب والشعر ، مثل أبي القاسم خلف بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٣ م) . وهو مؤلف كتاب الصلوة الذي ذيل به على كتاب علماء الأندلس لابن الفرضي (٢) وابن بدرون الإشبيلي المتوفى في فاتحة القرن السابع ، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بني الأفطس ، وابن الصابوني الصديقي الإشبيلي الشاعر ، المتوفى في سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وقد قال ابن الأبار في حقه « ذهب الآداب بذهابه » وختمت الأندلس شعراءها .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة في تلك العصور ، وكانت مقصد الطلاب من كل فج ، وكانت مزودة بالمكتبات التي تضم أنفس الكتب والمصنفات ، في مختلف العلوم والفنون .

وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون ، وأقيمت في عهدهم في معظم قواعد الأندلس ، طائفة من المساجد والأبنية الفخمة ، التي تمتاز بجمالها الفني . وكان يعقوب المنصور حفيد عبدالمؤمن ، من أشدهم شغفاً بالمنشآت الفخمة ، ومن آثاره الشهيرة بالأندلس برج مسجد إشبيلية الضخم ، الذي كان يستعمل لرصد النجوم والذي سمي فيما بعد « بالجيرالدا » Giralda ، وهو مازال قائماً إلى اليوم .

(١) نهج الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) وقد نشر ضمن المكتبة الأندلسية في مجلدين طبع مدريد في سنة ١٨٨٣

وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة في عهد الموحدين ، وازدهرت الزراعة بنوع خاص ، وارتقت أساليبها الفنية ، وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة ، في أحواز بلنسية وإشبيلية ، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية ، ولاسيما صناعة الأقمشة الممتازة ، والصناعات الجلدية ، وصناعة الورق وغيرها . وازدهرت التجارة وعم الرخاء . وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية والمرية ، من أعظم مراكز التجارة الخارجية في هذا العصر .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجري ، واجتاحت الثورة معظم القواعد والثغور الأندلسية . ونهض المتغلبون يتنافسون في اجتناء أسلاب الدولة الذهبية ، شعرت اسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة ، لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة ، وبدأت قواعد الأندلس التالدة ، تسقط تباعاً في يد النصارى . وشغلت الأندلس بمحنتها الغامرة ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت ، فانكشفت فنون السلم ، وقضاعت دونة التفكير والأدب ، وإن كانت الخنة عند أذكت لوعة الشعر ، وبعثت إلينا بطائفة جمّة من أروع المراثي ، التي مازالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعها .

وانجلت الفن الداخلية ، وانجلى الصراع بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، مثل قرطبة وإشبيلية وبلنسية ، في يد النصارى ، وانكشفت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت في الركن الجنوبي الغربي للمملكة الإسلامية القديمة ، في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي برزت من نحر الفوضى ، واستقرت في رقعتها المتواضعة ، بين نهر الوادي الكبير والبحر ، وهرعت إليها معظم الأسر الأندلسية القديمة ، التي أبت التذجن والبقاء في ظل حكم النصارى ، ولم يمض سوى قليل ، حتى غدت مستودع تراث الأندلس القومي والسياسي ، ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي :

وكانت مملكة غرناطة ، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها ، تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية ؛ فإلى جانب وديانها الحصبة النظرة ، توجد الجبال تحرقها

من كل صوب ، وبها الكثير من الثروات المعدنية ؛ وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بسائطها الماء الغزير . وكانت ثغورها وهي ثغور الأندلس الجنوبية ، ولاسيما مالقة وألمرية . من أغنى الثغور الإسبانية وأزخرها بالحركة التجارية . أما غرناطة عاصمة المملكة ، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى في يد النصارى ؛ أعظم القواعد الأندلسية الباقية ، وأغناها وأكثرها ازدهاماً بالسكان . وكانت بحمراؤها المطلة عليها من ربوتها المنيع ، وشوارعها الزاهرة ، وميادينها الفسيحة ، وقصورها البديعة ، وحدائقها ومنتزهاتها الياقة ، من أجمل مدن العصور الوسطى . وكانت غاية في الحصانة ؛ سواء بموقعها الطبيعي ، أو بأسوارها الكثيفة ، التي يتخللها ألف وثلاثمائة برجاً منيعاً ، وكانت تضم في أيامها الزاهرة من السكان مع أرباضها وضواحيها زهاء نصف مليون من الأنفس ، وذلك بما تقاطر عليها من سيل المهاجرين من المدن الأندلسية الأخرى . وكان يوسع العاصمة وقت الحرب ، أن تعبى وحدها زهاء خمسين ألف مقاتل ، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحدها لأربعين ألف رجل (١) .

وقد رأينا كيف نشأت مملكة غرناطة ، على يد رجل ذى عبقرية هادئة ولكن واسعة الأفق ، هو محمد بن الأحمر ، زعيم بني نصر ، وكيف استمر أعقباه يتوارثون عرش غرناطة أكثر من قرنين ، حتى سقطت في أيدي النصارى . وتسمى دولتهم بالدولة النصرية أو دولة بني الأحمر ، وقد تسمى زعيمهم ومؤسس دولتهم بأمر المسلمين ، وهو اللقب الذي كان يتسم به ملوك العدو في تلك العصور ، وغلب هذا اللقب على سلاطين غرناطة حتى نهاية دولتهم .

وكان ملوك بني نصر ، كسائر ملوك العصور الوسطى ، يدينون بمبدأ الحكم المطلق ، ولا يرون له بديلاً . على أنه في وقت الخطر العام والأحداث الخطيرة ، كان السلطان يستعين برأى الزعماء والقادة ذوى العصبية والتوجيه . وكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية ، ويباشر مهام الأمور بنفسه ، إلا في فترات قليلة يستأثر بالسلطة فيها وزير قوى ، كما حدث في عهد السلطان ابن عبد الله محمد الملقب بالخلوع (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) ، حيث استأثر بالحكم وزيره أبو عبد الله ابن الحكيم

اللخمي . وعهد السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ( ٧٢٥ - ٧٣٣ هـ ) ، حيث استبد بالحكم دونه وزيره ابن المحروق ، وعهد أخيه السلطان أبي الحجاج يوسف ( ٧٣٣ - ٧٥٥ هـ ) حيث استبد بالحكم الحاجب أبو النعيم رضوان ، ثم في عهد السلطان الغني بالله ( ٧٥٥ - ٧٩٣ هـ ) حيث استبد بالحكم حيناً وزيره ابن الخطيب . وكان نظام الطغيان الذي يفرضه الوزير المتغلب ، ينتهي في كل مرة بانقلاب عنيف ، ويستعيد السلطان سلطته الحقيقية ، في غمرة من الحوادث الدموية .

وكان هذا النظام المطلق الذي يسود حكومة غرناطة ، يؤدي إلى نشوب الثورة في أحيان كثيرة ، ويدكى من عواملها في الوقت نفسه ، تطاحن الأحزاب في البلاط والجيش . وكان هذا النظام يتطور أحياناً في ظل الملوك الضعاف إلى نوع من الإقطاع ، ويستأثر بعض الرعماء الأقوياء والأسر ذات العصبية ، بحكم المدن والثغور . وكان الشعب الغرناطي سريع التقلب والغضب ، يأخذ في الثورات والإنقلابات السياسية بأعظم قسط . وكانت مناصب الحكم الرئيسية في حكومة غرناطة ، تنحصر في الوزارة وقيادة الجيوش والقضاء . فأما الوزارة فكانت تسند غالباً إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وبين وزراء الدولة النصرية ثبت حافل من هؤلاء ، مثل ابن الحكيم اللخمي ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك ، وكلهم من أقطاب الكتابة والشعر . وكان الوزير - وفي فترات نادرة يسمى الحاجب - يستعين بطائفة من « الكتاب » لتنفيذ مختلف المهام . وللسلطان كاتب سر أو أمين خاص . وكثيراً ما يرتقى « الكتاب » إلى منصب الوزير ، ويعتبر الوزير رأس الدولة التنفيذية الحقيقية ، وهو الذي يشرف سواء بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوي ، على تصريف شئون المملكة ، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية .

وأما قيادة الجيوش ، فكانت أهم المناصب في دولة تواجه إغارة العدو على أراضيها باستمرار . وكان يختص بهذا المنصب الخطير ، منذ أواخر القرن السابع الهجري أسرة بني العلاء ، أحد بطون بني مرين ملوك العدو ، وكان توليهم لقيادة الجيوش الأندلسية ، نتيجة للتحالف التي توثقت أواصره بين بني الأحمر وبني مرين عصرًا (١) . وقد اشتهر أولئك القواد المغاربة بالبراعة والشجاعة ، وكانت لهم في ميادين

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ .

الحرب والجهاد مواقف مشهودة . وكان المتولى لمنصب القيادة العامة يلقب بشيخ الغزاة ، وكانت الجنود المغربية عنصراً بارزاً في الجيش الأندلسي ، وقد تحلقت بالأندلس منذ أيام المرابطين والموحدين جموع كثيرة من البربر (١) ، وكانوا لبدواتهم وخشونتهم يوثرون الحياة العسكرية على الحياة المدنية ، وقد زاد عددهم بالأخص أيام عبور الجيوش المرينية إلى الأندلس . وبالرغم مما أداه القواد والجنود المغاربة لمملكة غرناطة ، من الخدمات الجليلة في ميدان الحرب ، فقد كانوا أحياناً خطراً على النظام والعرش ، وكان لبني العلاء شيوخ الغزاة أطماع سياسية ، ظهرت خطورتها في بعض الثورات والإنقلابات العنيفة .

وقد كانت قوة غرناطة العسكرية ، في الواقع عماد حياتها ، التي استطالت أكثر من قرنين ، وذلك بالرغم من القوى الجارية المعادية ، التي لبثت باستمرار ترهقها ، وتستنفد مواردها . وكان الجيش الأندلسي ، فضلاً عما كان يزخر به من العناصر المجاهدة الباسلة ، من البربر وجند البشترات وغيرها ، من المناطق الجبلية ، يتمتع بكثير من المزايا البارزة ، فكان يضم فرقاً من أبرع الرماة ، وكان بالأخص يتفوق بفرق الفرسان ، التي اشتهرت في تلك العصور ببراعتها التي لا تبارى . وإلى جانب ذلك كانت الطبيعة تحبو غرناطة برعايتها ، وتساعد التلال المرتفعة والمنماوز الوعرة ، التي تتخللها في كل ناحية ، على شدة المقاومة ، واتقان حرب العصابات التي ترهق الجيوش المنظمة . وكانت القواعد الأندلسية ، من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وشيدت الحصون القوية في كل مكان يصلح للمقاومة . وأهم من ذلك كله أن مسلمي الأندلس ، كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود (٢) ، واستعملوه منذ منتصف القرن الرابع عشر ، حسبما فصلنا في موضع سابق (٣) . وكان لذلك كله أثر واضح في تمكين مملكة غرناطة الصغيرة ، من الوقوف في وجه عدوها القوي بنجاح ، طيلة هذه العصور .

وكان للقوى البحرية أيضاً شأنها ، في كفاح الأندلس من أجل حياتها .

(١) راجع ص ٤٨ من هذا الكتاب .

(٢) Prescott; Ferdinand and Isabella p. 193-194

(٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الكتاب .

وكانت مملكة غرناطة تسيطر من ثغورها الشهيرة: جبل طارق والجزيرة وطريف ومالقة ، على مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت أهم مهام الأسطول ، بعد حماية الشواطئ ، والثغور ، تأمين الصلة المباشرة بين مملكة غرناطة ، وبين اخوانها المسلمين فيما وراء البحر في المغرب الأقصى ، وقد استطاعت الأساطيل الأندلسية والمغربية ، أن تحتفظ بسيادتها في هذه المياه عصوراً ، وكان انهيار قوة غرناطة البحرية ، وسقوط ثغورها في يد النصارى ، نذير السقوط النهائى .

وكان أرفع المناصب القضائية ، منصب قاضى الجماعة ، وهو ما يقابل فى الأندلس منصب قاضى القضاة فى مصر الإسلامية . وقاضى الجماعة هو أيضاً قاضى الحضرة وقاضى غرناطة ، والغالب أن يجمع فى نفس الوقت بين منصبه ومنصب خطيب الحمراء ، أو خطيب الجامع الأعظم (١) ، وهو أيضاً من المناصب الدينية الرفيعة . وكان القضاء يجرى فى مملكة غرناطة ، على مذهب الإمام مالك ، وهو مذهب الأندلس المفضل منذ القرن الثانى المجرى . وكان يجرى تعيين قاضى الجماعة « بظهير » أى مرسوم ملكى . وكانت كلمة « الظهير » هى الغالبة فى مملكة غرناطة للتعبير عن المراسيم والقوانين السلطانية : وهى مازالت تستعمل حتى اليوم فى المغرب الأقصى ، حيث يوصف المرسوم بأنه « ظهير ملكى » . وكان لكل مدينة قاضياً وخطيباً ، ولا يشغل مناصب القضاء سوى أكابر العلماء والفقهاء .

ويتبع القضاء وظيفة الحسبة وهى أيضاً وظيفة دينية ، تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات ، والتعزير والتأديب على قدرها ، والعمل على احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات ، وأمور المعيشة والمكاييل والموازين ، وله أيضاً أن يحمل الناس على أداء المصالح العامة ، مثل تمهيد الطرقات والإضاءة بالليل وغير ذلك .

وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى متولى الشرطة ، وكان يسمى أيام الدولة الأموية صاحب الشرطة ، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو الخاصة ، ويتمتع بسلطات قضائية وإدارية واسعة . ثم سمي بعد ذلك بصاحب المدينة وصاحب الليل . وكان يعتبر فى منصبه

(١) راجع نصح الطيب ج ٣ ص ٧٠ و ٧٤ و ١٩٧ .

تابعاً للوزارة ، مسئولاً أمامها ، وكان جل اختصاصه أن يتولى حفظ النظام والأمن ، ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وتنفيذ العقوبات الجنائية ، من الحد والعزير وغيرهما فيمن وجب عليه ذلك ، وهو الذي يتولى الإتهام والتحقيق وتوقيع العقوبة ، دون تدخل القاضي ، ويعاونه في مهمته جماعات من الحراس ، تجوب أنحاء المدينة ليلاً ، وتشرف على حراسة الطرق والأمكنة وتعتقب الجناة (١) .

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت تتمتع به مملكة غرناطة ، بالرغم من انكماش رقعتها من الموارد والثروات الطبيعية الوفيرة . وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى ، من أعظم موارد الأندلس ، وكانت وديان اسبانيا الحصبة ، التي تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وترتبتها البديعة ، وأقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة ، تفسح أعظم مجال لشعب عامل ذكي . وكان عرب الأندلس من أنبغ الشعوب ، في فلاحه الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الري ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال في الجودة والنماء ؛ وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقيا إلى اسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، وكانت غياض القمح وغابات الزيتون ، وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من أبدع ما ترى العين في وديان الأندلس ومروجها النضرة . وأما نبوغ عرب الأندلس في تنظيم وسائل الري والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، في وديان الأندلس ، من القناطر والحداول الدارسة ، وقد أقيمت أيام الدولة الأموية عدة من القناطر الشهيرة ، وحفرت ترع ومصارف لاحصر لها ، في مختلف أنحاء اسبانيا ، وكلها مما يشهد لصانعها بالمهارة والتفوق ، وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة في غرس الحدائق وتنسيقها ، وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة ، بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق ، وكانت روعتها مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب . وفي مكتبة الاسكوريال مؤلف في الزراعة لأبي زكريا الإشبيلي ، يدل على مبلغ ما وصل إليه عرب الأندلس من

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ١ من ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ من ١٠١ .

معرفة بخواص التربة ، واستخراج كنوز الأرض : وطرق الري والصرف ، وأحوال الطقس وغيرها .

وكانت مملكة غرناطة بالرغم مما يتخللها من الجبال والهضاب الوعرة ، تضم كثيراً من الوديان والبساتن الخصبة ، وكانت ضفاف شنيل سلسلة من البساتن الخضراء ، تتخللها مئات الترع والقنوات ؛ وكان المرج الشهير ، الواقع غربى غرناطة La Vega ، وهو الذى لبث أكثر من قرنين مسرحاً للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى ، بحقوله وحداثته النظرة ، كأنه قطعة من الجنان ، أودعها المسلمون كل براعتهم . وكانت المحاصيل المختلفة تتعاقب طول العام ، وتنتج البلاد كل ما يكفيها من الأطعمة والمؤن . وكانت مزارع الكروم الأندلسية الشهيرة ، تغطى مساحات واسعة فى غرناطة ومالقة وشريش .

وكذلك ضرب عرب الأندلس فى الصناعة بأوفر سهم . وكانت اسبانيا المسلمة أيام قوتها ، أعظم الأمم الصناعية فى أوروبا ، وكانت ثرواتها المعدنية ، من الحديد والرصاص والزنبق والذهب والفضة وغيرها ، تمدها بأسباب التفوق فى هذا الميدان . وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص ، بصناعة الأسلحة الجيدة ، تنتجها بوفرة وتصدرها إلى أمم أوروبا وإفريقية . وكذا اشتهرت بصناعة الصوف الحرير ، والأقمشة الملونة الممتازة ، وصناعة الجلود التى برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص . وقد استطاعت مملكة غرناطة ، أن تستبقى كثيراً من الصناعات الأندلسية القديمة ، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيماً لصناعة الأسلحة والدخائر ، وكان تفوقها فى هذه الصناعة من أسباب قوتها ، وتمكنها طويلاً من مدافعة أعدائها . وكذلك استمرت صناعة الحرير على تقدمها وازدهارها ، ولاسيما فى مالقة وألمرية ، وكانت يومئذ من أعظم موارد الأندلس . وقد نقلت المدن الإيطالية ، التى اشتهرت بصناعة الحرير فى العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم فنونهم وطرائقهم فى هذه الصناعة المربحة ، وكانت مدينة فلورنيس تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر (١) . ولبثت صناعة الخزف الجميل ، مزدهرة حتى العصر الأخير . وكذلك لبثت صناعة الجلود الفاخرة الملونة ، حتى نفي الموريسكيين ، وقد نقلت

بعد نفهم على يدهم إلى أوروبا . واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق . وقد اكتشف الغزيري ، عدة مخطوطات بمكتبة الإسكوريال ، ترجع إلى القرن الحادي عشر ، كتبت على ورق مصنوع من القطن ، وأخرى ترجع إلى القرن الثاني عشر ، كتبت على ورق مصنوع من الكتان ، وكان لهذه الصناعة مكانتها في مملكة غرناطة . أما التجارة فقد بلغت شأواً بعيداً في الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوروبا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية ، مع سائر ثغور البحر الأبيض المتوسط . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثغور الشام والإسكندرية ، وترسو سفنها التجارية في الثغور الإيطالية ، ولا سيما جنوة ورومة والبندقية . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات ، من بلاد أوروبا وإفريقية والمشرق . وازدهرت الحركة التجارية في غرناطة ولا سيما التجارة الخارجية ، وكان للجنوبيين وغيرهم ، من الأمم ذات الصلات الاقتصادية الوثيقة بالأندلس ، منشآت تجارية في غرناطة . وعقدت غرناطة مع جمهورية جنوة ومع مملكة أراجون معاهدات تجارية . وكانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أعظم المراكز التجارية في جنوب أوروبا ، حتى لقد وصفها بعض المؤرخين المعاصرين بأنها « مدينة جميع الأمم » . ويقول مؤرخ اسباني « إن شهرة سكانها في الأمانة والثقة ، بلغت إلى حد أن كلمتهم المجردة ، كان يعتمد عليها ، أكثر مما يعتمد على عقد مكتوب بيننا » (١) .

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تصدع منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة . وكانت موارد الخزينة أو الموارد السلطانية كثيرة متنوعة تتكون من ضريبة الأراضي المنزرعة وتبلغ في المتوسط نحو سبع قيمة المحصول ، والأموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة ، ودخل دار السكة ، ودخل بيت المال ، من زكاة وصدقات وميراث من لا وراث له ، وأخماس الغنائم التي كانت تحصل من العدو ، ومختلف الضرائب التجارية والمهنية . وكانت للعرش فوق ذلك أملاك ومزارع عظيمة في فحوص غرناطة ( المرج ) . وكانت الضرائب في مملكة غرناطة على وجه العموم ، أكثر مما كانت عليه في الدول الإسلامية السابقة

وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى استمرار الصراع بلا انقطاع بينها وبين النصارى .  
وقدر دخل مملكة غرناطة في تلك العصور ، بنحو مليون ومائتي ألف دوقة (١) ،  
وهي قيمة لا يستهان بها في ذلك العصر ؛ وكان يتولى الإشراف على شئون الدخل  
والخرج وأعمال الجباية موظف كبير يسمى « صاحب الأشغال » ، وكانت ثمة طوائف  
كبيرة من الشعب الغرناطى تتمتع بالثراء ، ويقتنى الكثيرون الحلى والجواهر النفيسة  
ولاسيما أبناء الطبقات العليا . وكانت غرناطة تتمتع فوق ذلك بنقد سليم ثابت (٢) ،  
يخرجه المضرب الملكى الذى اشتهر بأمانته ودقته ، ولا يتطرق إليه شىء من ذلك الزغل  
الذى كان فى أحيان كثيرة يؤدى إلى الانهيار المالى .

- ٤ -

وقد أشرنا فى بداية هذا الكتاب ، إلى تكوين الأمة الأندلسية فى مراحلها  
الأخيرة فى ظل مملكة غرناطة ، وإلى خصائصها العنصرية . والحقيقة أن المجتمع  
الأندلسى بمختلف عناصره الأصيلة والدخيلة ، كان قد استحال بمضى الزمن ،  
وتعاقب الحوادث والدول والمؤثرات الإجتماعية والإقليمية ، إلى أمة عربية إسلامية  
ذات طابع مستقل ومميزات خاصة ، تدعمها طائفة من الحلال البديعة ، وتصلقها  
حضارة رفيعة زاهرة . ثم قامت مملكة غرناطة التى اجتمعت فيها بقية الأمة الأندلسية  
لتعرض لنا خلال حياتها الطويلة ، المراحل الأخيرة لعظمة الأمة الأندلسية وحضارتها .  
وقد وصف لنا ابن الخطيب ، أحوال المجتمع الأندلسى ، وخواصه الجنسية  
والعقلية والاجتماعية فى هذا العصر ، الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الأفول . فذكر  
لنا أن الشعب الأندلسى ، كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة ، وأن صورهم جميلة  
وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم بيضاء ، وشعورهم سوداء ، وقودوهم متوسطة ، وألسنتهم  
عربية فصيحة ، تغلب عليها الإمالة ، وأنسابهم عربية ، وفيهم كثير من البربر  
والمهاجرين .

وكان نساؤهم يتميزن بالجمال والسحر ، واعتدال السمن ، ونعومة الجسم ،  
ورشاقة الحركة ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، ولكن ينذر الطول فيهن . وقد بلغن

---

(١) الدوقة هى عملة ذهبية كانت ذائعة فى أوروبا فى العصور الوسطى وتبلغ قيمتها نحو  
نصف جنيه من عملتنا الحديثة .

(٢) ابن الخطيب فى الملحعة البدرية ص ٢٩ .

في التفتن في الزينة والملبس شأوا بعيداً ، يسرفن في الأصباغ والعمود ، والتزين بنفيس الحلبي .

وكان اللباس الغالب بين الأندلسيين شتاء ، الملف (١) المصبوغ على اختلاف أصنافه وألوانه ؛ ويرتدون في الصيف ، الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشفوعة « فتبصرهم في المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، في البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة » .

ومما يجدر ذكره ، أن العمامة كانت يومئذ قد اختلفت تقريباً كلباس رأس بين الشعب الأندلسي ، ولم يكن يلبسها سوى العلماء والقضاة . وقد حلت القلانس منذ عهد بعيد مكان العمام . وكان أهل شرق الأندلس أسبق من غيرهم في نبذ العمامة ، وذاعت القلانس بينهم منذ أوائل القرن السابع ، حتى كان أمراؤهم بل وشيوخهم وقضاةهم يلبسون القلانس ، وكان كثير من أمراء المسلمين مثل ابن مردنيش وغيره يرتدون الثياب القشتالية (٢) . ولم يلبس ملوك بني الأحمر العمامة ، بل فضلوا القلنسوة (كاب) واتخذوها لباساً حتى آخر دولتهم . وفي متحف جنة العريف بغرناطة ، صورة يقال إنها لأبي عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وهي تصوره بقلنسوة عالية . وأما القضاة فقد احتفظوا بالعمامة كلباس رسمي . وتوجد بين الصور المنقوشة على جدران الحمراء صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرنس .

وكان الأمراء والأكابر ، وفريق كبير من أبناء الطبقات الميسورة ، يؤثرون ارتداء الثياب الإفريقية ، اقتداءً بغيرانهم النصراني ، ولا سيما في عصور الأندلس الأخيرة . وأما ثياب الجندي الأندلسي فقد كانت في العصور المتأخرة مشابهة لثياب الجندي النصراني ، وكذلك عدتهم وسلاحهم ونظامهم في الصفوف ، ثم عدلوا في عصر ابن الخطيب عن هذا الزي ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة ، والسروج العربية . وكانت الجنود البربرية من جانبها ، تحافظ على زيها المغربي .

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال في النظافة ، يبالغون في العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم ، ويكثرون من الاستحمام . وقد كانت هذه العادات فيما بعد ،

(١) نسيج من الصوف .

(٢) راجع ص ١٥٧ و ١٥٨ من هذا الكتاب .

حينما أكره المسلمون على التنصير ، من الشبه التي تثيرها ضدهم محاكم التحقيق ،  
للتدليل على تشبههم بالإسلام ، وارتدادهم عن النصرانية .

وكان المجتمع الغرناطي يعيش في رخاء وسعة ، تكثر لديه الأوقات في الشتاء  
والصيف ، ولا سيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والقسطل والجوز واللوز  
وغيرها ، ويدخرها الناس يابسة على كر الفصول ؛ ومتى حل الصيف ، هرع الناس  
إلى الفحوص ( المروج ) أعنى الضواحي ، للتمتع بجمال البساتن النضرة ، ونسيمها  
الليل (١) .

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقاً ، ولكن في حدود الاعتدال والاقتصاد . وكان  
الشعب الغرناطي يعشق مباحج الحياة والحفلات العامة ، وكانت الحياة لديه كأنها  
سلسلة من الأعياد المتواصلة . وكان الغناء ذائعاً ، ويكثر في المنتديات والمقاهي العامة ،  
حيث يجتمع الشباب بكثرة ؛ ولم تنس غرناطة مرحها حتى في أيام محنتها ، ولم تغلبها  
الكتابة إلا حينما أصبح العدو على الأبواب يهدد حياتها (٢) .

وقد استمرت الفروسة الأندلسية في مملكة غرناطة على ازدهارها ، ولبثت  
عصوراً تجذب الأنظار باكملها وروعها ورقة شمائلها . وفضلا عن كونها كانت  
عماد الدفاع القومي ، حسبنا أشرنا من قبل ، فقد كانت مظاهرها وحفلاتها من أمتع  
المباحج العامة ، في ميدان كان التسامح المؤثر يسود فيه علائق المسلمين والنصارى ،  
بالرغم مما كان يدور بين الفريقين من صراع مستمر . وقد اشتهر ملوك غرناطة ،  
فضلا عن الجود ، بميلهم نحو الحرية والتسامح ، فكان الأمراء المسلمون والنصارى  
يتبادلون الزيارات ، وكانوا يتلاقون أيام السلم وفي المفاوضات أندادا كراما ؛ ومن  
أشهر مظاهر هذا التواصل ما حدث في سنة ١٤٦٣ ، حيث سار هنرى الرابع ملك  
قشتالة إلى أراضى غرناطة ، وزار ملكها ابن إسماعيل ، والتقى الملكان في مكان بقرب  
الفحص (لاثيجا) ضربت فيه خيمة ملكية أمام أبواب العاصمة ، ولما انتهت  
الزيارة وتبادل الفريقان الهدايا ، رافقت ملك النصارى كوكبة من الفرسان المسلمين ،  
وشيعته حتى الحدود . وكذلك كان الفرسان المسلمون والنصارى ، يتبادلون الزيارات ،

(١) راجع ابن الخطيب في اللعة البدرية من ٢٧ — ٢٩ .

(٢) اللعة البدرية من ٢٨ ؛ وكذلك في Prescott : Ferd. & Isabella, p. 192

وكثيراً ما كان الفرسان النصارى يقصدون إلى غرناطة ، لقضاء مصالحهم وتسوية منازعاتهم ، وكذا كان كثير من الأسر القشتالية النبيلة ، يلجأ إلى حماية ملك المسلمين كلما شعرت بالإضطهاد والحيف ، وكان في مقدمة هؤلاء آل ثيلا وآل كاسترو ؛ وكانت مباريات الفروسية وحفلاتها تتوالى في غرناطة ، وفيها يبدى الفرسان المسلمون ضروباً رائعة من البراعة والرشاقة . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات الشهيرة اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات في الحسن والإناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من الحفلات العامة لسافرات ، ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً ، وكن يتمتعن في الواقع بقسط وافر من الحرية الإجتماعية (١) .

# الفصل الثاني

## الحركة الفكرية في مراحلها الأولى

الحركة الفكرية الأندلسية في أوائل القرن السابع . الشعر والآداب . ابن حريق . ابن مرج الكحل . ابن الجيان المرسى . ابن الأبار القضاعى . أبو البقاء الرندى . أقطاب اللغة . الفقه وعلوم الدين . المؤرخون . العلوم . بنو زهر . ابن البيطار المألقي . بنو الأحمر حماة العلوم والآداب . محمد الفقيه وولده المخلوع . السلطان أبو الحجاج . الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل . الوزراء الكتاب والشعراء . ازدهار الشعر والآداب . ركود الحركة العلمية . ابن الحكيم الرندى . حياته وشعره . ابن خميس التلمساني . أبو الجيان الغرناطى . الرئيس ابن الجياب . ابن جابر الضرير . أقطاب اللغة . علماء الفقه والدين . التصوف . المؤرخون والرحل . العلوم .

أتينا في الفصل السابق ، على لمحة من سير الحركة الفكرية ، في ظل الدولة الإسلامية بالأندلس ، حتى بداية القرن السابع الهجرى ، أعنى إلى ما قبل قيام مملكة غرناطة بقليل . ونريد الآن أن نتحدث عن سير العلوم والآداب والفنون ، في ظل مملكة غرناطة ذاتها . وسنحاول أن نتوسع في هذا الحديث قدر الإستطاعة ، وإن كانت المصادر العربية ، صنيعة في ذلك حسبنا أشرنا ، أولاً لهلاك معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، وثانياً لأن كثيراً من المفكرين والكتاب المتأخرين ، الذين رأوا الوطن الأندلسى مشرفاً على السقوط في يد العدو ، بادروا بالهجرة إلى المغرب والبلاد الإسلامية الأخرى .

بيد أنه يجدر بنا قبل ذلك ، أن نغنى بالفترة العصبية المضطربة التي جازتها الأندلس ، في أواخر أيام الموحدين قبيل قيام مملكة غرناطة . وقد شهدت الأندلس في هذه الفترة ، أعنى في أوائل القرن السابع الهجرى ، سلسلة من الأحداث الجسام . ذلك أن سلطان الموحدين أخذ ينهار سراعاً ، واضطربت ثورة ابن هود في الولايات الشرقية ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعاً في يد النصارى . واستطاع ابن الأحمر في الوقت نفسه ، أن ينشئ مملكة غرناطة في جنوبي الأندلس . وكان من جراء الفوضى السياسية التي عمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة الأدبية

وشنت شملها ، وفقدت وسيلة الإستقرار والتجمع ، وشغل الأدباء والمفكرون يومئذ بالحنة وآثارها . وغادر الأندلس في تلك الفترة ، كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل في جو أكثر استقراراً وطمأنينة ، مثل الشيخ محي العربي المرسي قطب التصوف الشهير ، وابن البيطار المالقي ، وابن الأبار القضاعي ، وابن حمدون الحميري النحوي ، وابن سعيد الأندلسي ، وكثيرون غيرهم ، ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وهكذا طلعت أوائل القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) على الأندلس ، بأحداثها وفتنها المتوالية ، والحركة الفكرية في ربوعها حائرة غير مستقرة ، يتبدى ضوؤها باهتاً ، في ظل دول وإمارات تتصدع أركانها تبعاً . ومع ذلك فقد ظل تراث الأندلس الفكري في هذه الفترة متواصلاً ، يمتاز على اضطرابه بكثير من نواحي القوة والنضج ، التي امتاز بها في ظل دولة الموحدين ، وقت أن كانت في عنفوانها .

وسوف نستعرض فيما يلي أعلام التفكير والأدب في تلك الفترة المضطربة ، التي مهدت حوادثها لقيام مملكة غرناطة ، فهي ليست في الواقع سوى حلقة اتصال ، بين العصر الذي اختتمته الأندلس الكبرى ، وبين العصر الذي بدأت فيه حياتها الجديدة .

## الشعر والأدب

وكانت الحركة الأدبية يومئذ ما تزال في عنفوانها . وكانت دولة النثر والنظم تحتل مكانتها الرفيعة ، بل لقد بعثت الأحداث والحن ، التي توالى على الأندلس يومئذ ، إلى الشعر بكثير من أسباب الإنفعال والقوة . فامتألت الأندلس يومئذ بالشعر المؤسي ، والمرثي القوية المؤثرة ، التي نقل المقرئ إلينا كثيراً منها ، في كتابيه نفع الطيب وأزهار الرياض .

وكان من أعلام الشعر في تلك الفترة ، علي بن محمد بن أحمد بن حريق الشاعر البلبنسي المتوفى في سنة ٦٢٢ هـ ( ١٢٢٧ م ) ، كان شاعراً مجيداً كثير النظم ، ذاع شعره في الأندلس ، وكتب فوق ذلك عدة كتب في الأدب (١) .

(١) ابن الأبار في تكملة الصلة ( رقم ١٨٩٥ ) ، وصلة الصلة لأبي جعفر الزبير ص ١٢٩ .

ومنهم ابن مرج الكمحل ، وهو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن علي ، أصله من جزيرة شقر ، وكان من أعظم شعراء عصره . وبرع بنوع خاص في الغزل والشعر الوصفي المبتكر ، وعاش حيناً في غرناطة ، وذاع صيته في سائر نواحي الأندلس ، وتوفي سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ومن شعر يصف عشة ، بنهر الفنداق الذي يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر      بين الفرات وبين شط الكوثر  
ولتغتبقتها قهوة ذهبية      من راحتي أحوى المراشف أحور  
والروض بين مفضض ومذهب      والزهر بين مدرهم ومدنر  
والنهر مرقوم الأباطح والربا      بمصنل من زهره ومعضفر  
وكأنه وكان خضرة شطه      سيف يسيل على بساط أخضر  
وكأن ذاك الحجاب فرنده      مهما طفا في صفحه كالجوهر (١)

ومنهم عزيز بن عبد الملك القيسي ، كان من أهل مرسية واشترك في حوادثها السياسية ، واستطاع أن يظفر بأمارتها لمدي قصير ، وتوفي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) قتيلًا ، في معركة نشبت بينه وبين خصومه ، وكان شاعر مجيداً ، ومن قوله عندما حلت به المحنة :

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا      فأعقبنى نصحي بدار هوان (٢)  
ومنهم علي بن ابراهيم بن علي المعروف بابن الفخار ، أصله من شريش وكان من أعلام الكتابة والنظم وتولى القضاء حيناً ، وتوفي سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) (٣) .  
ومنهم ابراهيم بن سهل الإشبيلي . وقد كان يهودياً ثم أسلم ، وبرع في الشعر ولا سيما في التوشيح ، ومن أبدع شعره قصيدة طويلة نظمها في مدح النبي . وقد توفي غريقاً في النهر ، وهو شاب في عنفوانه ، وذلك سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) .  
ومن شعره قوله :

مضى الوصل لإلمنية تبعث الأسي      أدارى بها همى إذا الليل عسعسا

- (١) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .  
(٢) راجع صلاة الصلاة ص ١٦٥ ، وابن الأبار في التكملة رقم ١٩٥٢ .  
(٣) راجع صلاة الصلاة ص ١٣٥ ، والتكملة رقم ١٩٠٧ .

أتانى حديث الوصل زوراً على النوى      أعد ذلك الزور اللذيذ المونسنا  
ويا أيها الشوق الذي جاء زائراً      أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسنا  
ومن موشحاته :

ليل الهوى يقظان      والحب ترب السهر  
والصبر لى خوان      والنوم من عيني يرى (١)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الجيان المرسى ، صديق ابن هود وكاتبه . وكان عالماً بالحديث والرواية ، بارعاً فى النثر والنظم . تولى الوزارة حيناً لابن هود ، وهو الذى كتب عن لسانه وصيته الشهيرة لأخيه . ولما استولى النصارى على مرسية سنة ٦٤١ هـ ، غادرها إلى أريولة ، ثم نرح إلى المغرب ، واستقر بمدينة بجاية ، وتوفى هنالك سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . وكان ابن الجيان صغير القد ، حتى ليخاله الناظر إليه طفلاً ، ومن شعره قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

ياحادى الركب قف بالله يا حادى      وارحم صبابة ذى نأى وإبعاد (٢)

ومنهم الكاتب الشاعر ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى ، المعروف بابن الأبار . ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز فى الفقه واللغة ، وبرع فى النثر والنظم ، وتولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، حفيد ابن مردنيش . ولما حاصر النصارى بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) واشتد الخطب بالمسلمين ، أرسل أميرها زيان كاتبه ابن الأبار ، سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس ، يستغيث به ويستنصره على العدو ، وألقى ابن الأبار بهذه المناسبة بين يدى أبى زكريا قصيدته السينية الشهيرة ، يردد فيها صريخ الأندلس ، ويصف آلامها ومحنها ، وهذا مطلعها :

أدرك بجيالك خيل الله أندلسنا      إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمس      فلم يزل عز النصر منك ملتصا

وهى من غرر القصائد التى ذاعت بالأندلس أيام الحقنة . ولما سقطت بلنسية بعد ذلك بقليل فى يد النصارى ، نرح ابن الأبار فى أهله إلى تونس ، وعاش

(١) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٤٣٢ وما بعدها ، حيث ينقل وصية ابن هود لأخيه ؛ وص ٤٤٠

وما بعدها حيث يذكر طائفة من نظم ابن الجيان .

هنالك حيناً في كنف أميرها . ولكنه تغير عليه بعد ذلك ونكبه ، وتوفي قتيلاً بتحريرض  
خصومه وذلك في سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) . ولابن الأبار كثير من الشعر الجيد .  
ومن قوله في الغزل

لم تدر ما خلدت عينك في تحلدي      من الغرام ولا ما كابدت كبدي  
أفديك من رائد رام الدنو فلم      يسطعه من فرق في القلب متقد  
خاف العيون فوافاني على عجل      معطلا جيده إلا من الجيد  
ومنه يصف نهراً :

ونهر كما ذابت سبائك فضة      حكى بمجانبه انعطاف الأرافم  
إذا الشفق استولى عليه احمراره      تراءى قضيباً مثل دامي الصوارم

وكتب ابن الأبار في الأدب والتاريخ . ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن  
بشكوال ، ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضاً كتاب  
الحلة السيرة ، ترجم فيها لطائفة مختارة من أعيان الأندلس من أمراء وكتاب وشعراء ،  
وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ عصره (١) . وله مؤلفات أخرى مثل  
كتاب تحفة القادم ، وإيماض البرق ، وكتاب الأعتاب ، أو أعتاب الكتاب وغيرها ،  
وهي آثار وصل معظمها إلينا (٢) .

ومنهم أبو البقاء صالح بن شريف الرندي . وكان أديباً شاعراً جزلاً . بيد  
أننا لانعرف كثيراً عن حياته ، ولا نعرف إلا أنه كان من أهل رندة كما يدل على ذلك  
لقبه . وقد عاش أبو البقاء حسباً رأينا في بداية هذا الكتاب في النصف الثاني من  
القرن السابع الهجري ، وعاصر الفتنة التي تمخضت عن قيام مملكة غرناطة ، وسقوط  
معظم القواعد الأندلسية في يد النصارى . وقال في المحنة مرثيته الشهيرة التي أتينا  
على ذكرها في موضعها ، والتي خلدت ذكره إلى يومنا . وقد وهم المقرئ فاعتقد

(١) نشر كتاب التكملة في مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، ونشر كتاب الحلة السيرة بعناية  
المستشرق دوزي ( ليدن سنة ١٨٥١ ) .

(٢) راجع في ترجمة ابن الأبار ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ ونفع الطيب ج ٢  
ص ٥٧٨ — ٥٨٠ . هذا وتوجد نسخة خطه من كتاب تحفة القادم بمكتبة الاسكوريال ، ونسخة  
من كتاب أعتاب الكتاب بدار الكتب المصرية .

أنه قد عاش في أواخر القرن التاسع الهجري ، ووصفه بأنه خاتمة أدياء الأندلس  
حسب أسلافنا (١) . ومن شعره في الغزل والتصوف :

سلم على الحى بذات العرار      وحى من أجل الحبيب الديار  
وخل من لام على حبهيم      فما على العشاق في الذل عار  
ولا تقصر في اغتنام المني      فما ليسانى الأفس إلا قصار  
وإنما العيش لمن رامه      نفس تدارى وكؤوس تدار  
وروحه الراح وريحانه      في طيبه بالوصل أو بالعقار (٢)

\* \* \*

وظهر في تلك الفترة جماعة من أقطاب اللغة ، مثل علي بن محمد بن خروف  
الإشبيلي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ، وقد طاف بقواعد الأندلس والمغرب ،  
وذاع صيته ، ووضع شرحاً لكتاب سيديويه (٣) ، وعمر بن محمد الأزدي الإشبيلي  
المعروف بالشلوين ، وكان إماماً في العربية وبرع في النحو والفقه ، وتوفى  
سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) (٤) .

وظهر جماعة في الفقه وعلوم الدين ، مثل علي بن أحمد بن محمد الغساني ،  
من أهل وادي آش ، وقد ألف في شرح «الموطأ» كتاباً ضخماً سماه «نهج السالك  
للتفقه في مذهب مالك» ، ووضع شرحاً لكتاب مسلم ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ  
(١٢١٢) (٥) ، وعمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدي الرندي المحدث ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ  
(١٢١٨ م) (٦) ، وقرينه ومواطنه المحدث المؤرخ عيسى بن سليمان الرعيني الرندي ،  
المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) (٧) .

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ ، ونهج الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ .

(٢) تراجع القصيدة بأكملها في نهج الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ و ٥٩٦ .

(٣) راجع ترجمته في صلة الصلاة ص ١٢٢ .

(٤) « د د د د د » ص ٧١ .

(٥) « د د د د د » ص ١٢١ .

(٦) « د د د د د » ص ٧١ .

(٧) راجع ترجمته في صلة الصلاة ص ٥١ .

ونبع في تلك الفترة بالذات ، أعظم متصوفة الأندلس الشيخ محي الدين أبو بكر الطائى المعروف بابن عربى ، وقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى المشرق في شبابه ، وحج وطاف بمعظم قواعده ، وبقي به حتى توفى سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، وله ثبت حافل من المصنفات الخلية ، منها كتاب فصوص الحكم ، والفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلهية ، وعشرات غيرها ، ذكرها صاحب فوات الوفيات ، وله شعر جيد (١) .

ونستطيع أن نذكر من المؤرخين في تلك الفترة ، إلى جانب ابن الأبار القضاعى ، الذى سبقت ترجمته ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة في مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم في فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، يضم كتابين كبيرين هما : كتاب « المشرق في حلى المشرق » « والمغرب في حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد في غرناطة سنة ٦١٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ ( ١٢٧٤ م ) ، وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق ، ومؤلفه الكبير أثر أدبى وتاريخى وجغرافى جليل بارع الأسلوب (٢) . وله كتب أخرى ذكر منها صاحب فوات الوفيات كتاب المرقص والمطرب ، وملوك الشعر . وله شعر رقيق .

## العلوم

وكان للعلوم أيضاً مجالها بالأندلس في أوائل القرن السابع الهجرى ، وربما كانت هذه آخر مرحلة ازدهر فيها العلم الأندلسى ، واستطاع أن يحتفظ بقبس من تقاليدته القديمة الراضحة .

وكان ممن ظهر في تلك الحقبة ، أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجليانى ، الطبيب والشاعر الأديب ، أصله من جليانة من أعمال غرناطة ، ونبع في الطب

(١) راجع في ترجمة ابن عربى ، فوات الوفيات ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٧ . وقد انتهت إلينا من هذا الأثر الضخم نسخة مشوهة

ناقصة ، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ تاريخ ، وراجع فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٩ .

في ظل الموحدين ، ثم رحل إلى المشرق ، وطاف بمصر والشام ، ونظم كثيراً في الإلهيات والرياضيات وآداب النفس (١) .

ومنهم أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي ، سليل أسرة بني زهر الشهيرة ، التي نبغ منها في الطب والكيمياء والصيدلة ، أبو العلا بن زهر ، ثم ولده عبد الملك الذي سبقت الإشارة إليه ، ثم ابنه أبو بكر هذا ، وقد برع كأبيه وجدته في الطب والكيمياء ، وكان من أعظم أطباء الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري .

ومنهم أبو العباس بن الرومية الإشبيلي الطبيب ، وقد اشتهر بالأندلس في أواسط القرن السابع الهجري ، وله كتاب في الأدوية المفردة على نمط الكتب التي ألفها بنو زهر في هذا الموضوع (٢) .

وكان من أعظم علماء الأندلس في هذا العصر ، ابن البيطار المالقي العالم النباتي والطبيب المشهور ؛ وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري ، ودرس على أبي العباس النباتي ، ثم غادر الأندلس في شبابه ، وطاف بأحاء المغرب ، وقدم إلى مصر أيام الملك الكامل ، فدخل طبيباً في خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب في مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وألف في ذلك كتابين : « كتاب الجامع في الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة في عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، وكتاب « المغني في الأدوية المفردة » ، وهو مرتب على مداواة الأعضاء ، وكتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » ، ودرس عليه ابن أبي أصيبعة العالم المشهور ، وصاحب تراجم الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفي ابن البيطار بدمشق سنة ٥٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) (٣) .

وظهر في هذا العصر علماء آخرون في الرياضيات والفلك ، وكان منهم مطرف الإشبيلي ، وقد برع في الفلك ، واشتغل بالتصنيف فيه ، وكان ينسب

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ١٦ ؛ وقد أورد المقرئ شيئاً من شعره .

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) راجع فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

إلى الزندقة بسبب اعتكافه في هذا الشأن ، فكان يخفي تصانيفه ونتائج بحوثه عن أهل عصره (١) .

— ٢ —

وهكذا كانت الحركة الفكرية بالأندلس في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها . فلما نهضت مملكة غرناطة من غمر الفوضى ، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة في ظل هذه المملكة الفتية الجديدة ، أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار ، وآنتت جواً من الهدوء والطمأنينة . وكان ملوك غرناطة جرياً على سنن ملوك الأندلس السالفين ، من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، وكان أمراء بني الأحمر أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء . واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر ، بحمايته للعلم والأدب ، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم (٢) . وكان ابنه محمد الفقيه عالماً ضليعاً ، يعشق مجالس العلم ويؤثر العلماء بعطفه ، ويقرض الشعر (٣) ، وكذا كان ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالملخوع ، عالماً شاعراً ينظم الشعر المستظرف ، وقد أورد لنا ابن الخطيب قصيدة من شعره يقول فيها :

واعدنى وعداً وقد أخلفا      أقل شيء في الملاح الوفا  
وحال عن عهدى ولم يرعه      ما ضره لو أنه أنصفا  
ما بالها لم تتعطف على      صب لها ما زال مستعظفا (٤)

وبلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها ، في مملكة غرناطة ، في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) ، وولده السلطان محمد الغني بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) . وكان السلطان أبو الحجاج نفسه ،

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) الملحمة البدرية ص ٣١ .

(٣) د د ص ٣٨ .

(٤) راجع هذه القصيدة في الملحمة البدرية ص ٤٩ .

علماً أديباً يشغف بالفنون . واشتهر الأمير أبو الوليد إسماعيل بن السلطان يوسف الثاني بأدبه وبارع نثره ، وهو صاحب كتاب « نثر الجمان » الذي يترجم فيه لأعلام عصره في الشعر والأدب (١) .

وكان من بين وزراء الدولة النصرية وكتابها ، كثير من أعلام الشعر والأدب . ويكفي أن نذكر في هذا المقام ابن الحكيم الرندي ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وابن زمرك ، والشريف العقيلي خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها ، وهم جميعاً من أقطاب الحركة الأدبية في مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها . وسنعود إلى التحدث عنهم فيما بعد .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الحركة الفكرية الأندلسية في ذلك العصر ، تكاد تنحصر في النواحي الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر ، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقالما نجد في هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو العلوم الطبية ، أو غيرها من العلوم المحضة ، التي ازدهرت من قبل بالأندلس ، ونبغ فيها ثبث حافل من أكابر العلماء والفلاسفة . هذا بينما احتفظت الآداب في مملكة غرناطة بروائها وازدهارها ، حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

وقد تقلبت الحركة الفكرية الأندلسية في المائتين وخمسين عاماً التي عاشتها مملكة غرناطة ، في أطوار ثلاثة : طور الفتوة ، وطور النضج ، وطور الإنحلال الأخير . وسوف نحاول أن نستعرض هذه الأطوار الثلاثة تباعاً ، ذاكرين أقطاب التفكير والأدب في كل مرحلة منها .

٣ —

ويبدأ الطور الأول باستقرار مملكة غرناطة وتوطدها ، في أواخر القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن .

وقد حفلت هذه الفترة التي بزغت فيها شمس الأندلس من جديد ، بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، وازدهر الأدب ، واستعاد الشعر بنوع خاص ، كثيراً من روعته وروائه القديم .

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ ، وراجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ .

وكان في طليعة شعراء هذه الفترة ، الكاتب البليغ والأديب البارع ، الوزير ابن الحكيم وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن يحيى اللخمي الرندي وأصلهم من بيوتات إشبيلية ، وكان جد والده يحيى طبيباً عرف بالحكيم ، وأسبغ لقبه على الأسرة . ولما اضطرت الفتنة بالأندلس أيام الطوائف ، انتقلت الأسرة إلى رندة ؛ وولد ابن الحكيم برندة سنة ٦٦٠هـ ووفد على غرناطة فتي ، أيام السلطان أبي عبد الله محمد المعروف بالفقيه ، فولاه كتابته في ديوان الإنشاء . ثم تقلد بعد وفاته الوزارة لولده السلطان أبي عبد الله المخلوع ، إلى جانب وزيره أبي سلطان عزيز الداني . فلما توفي أبو سلطان انفرد ابن الحكيم بالوزارة ، ولقب بذي الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . واستبد بالحكم حيناً حتى نشبت الثورة في غرناطة ضد السلطان أبي عبد الله المخلوع وحكومته الطاغية ، وقتل فيها ابن الحكيم يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) حسماً أسلفنا في موضعه . وكان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً وخطيباً ذليلاً ، وقد وصفه ابن الخطيب في الإحاطة بقوله : « كان فريد دهره سماحة وبشاشة ولودعية وانطباعاً ، رقيق الحاشية ، نافذ العزمة ، زار المشرق وحج ودرس وتلقى عن مشايخه » . ومن شعر ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره      لو لازم الإنسان إيثاره  
يصلون بالعقل الفتي نفسه      كما يصون الحر أسراره  
لا سيما إن كان في غربة      يحتاج أن يعرف مقداره

ومن قوله في الغزل :

هل إلى رد عشيات الوصال      سبب أم ذاك من ضرب المحال  
وليال ما تبقى بعدها      غير أشواق إلى تلك الليال  
إذ مجال الوصل فيها مسرحي      ونعيمي أمر فيها ووال  
ولحالات التراضي جولة      مزجت بين قبول واقتبال  
وغزال قد بدا لي وجهه      فرأيت البدر في حال الكمال  
ما أمال التيه من أعطافه      لم يكن إلا على خصل اعتدال  
خص بالحسن فما أنت ترى      بعده للناس حظاً في الجمال

وقوله :

ألا واصل مواصلة العقار      ودع عنك التخلق بالوقار  
وقم واخضع عذارك في غزال      يحق لمثله خلع العذار  
قضيب مائس من فوق دعص      تعمم بالدجى فوق النهار  
ولاح بخبده ألف ولام      فصار معرفاً بين الدرارى (١)

وكان ولده أبو بكر محمد بن الحكيم أيضاً من أعلام الأدب والشعر في تلك الفترة ، وقد تولى مثله الوزارة فيما بعد ، وكان من أساتذة ابن الخطيب ، وقد ألف في الأدب كتاباً سماه « بالموارد المستعذية » (٢) .

ومن أكابر الشعراء في تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني ، أصله من تلمسان كما يدل عليه اسمه . ووفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه ، ونزل بالمرية سنة ٧٠٦هـ واتصل بحاكمها القائد أبي الحسن بن كهاشة ، ومدحه فأجزل ضلته ، ووصفه ابن خاتمة بأنه من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، وقد جمع شعره في ديوان سمي « الدر النفيس في شعر ابن خميس » . وكانت وفاته بالمرية سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) ، ويمتاز شعره بالجودة والروعة ، ومن نظمه قوله :

نظرت إليك بمثل عيني جوذر      وتبسمت عن مثل سمطي جوهر  
عن ناصع كالدرا أو كالبرق أو      كالطلح أو كالأقحوان مؤشر  
تجرى عليه من لماها نطفة      بل خيرة لكنها لم تعصر  
لو لم يكن خيراً سلافا ريقها      تزرى وتلعب بالنهي لم تخطر  
وقوله :

عجباً لها أيذوق طعم وصالها      من ليس يأمل أن يمر ببالها  
وأنا الفقير إلى تعة ساعة      منها وتمنعي زكاة جمالها  
كم ذا وعن عيني الكرى متأف      يبدو ويخفي في خفي مطالها  
يسمو لها بدر الدجى متضائلا      كنتصاؤل الحساء في اسمائها

(١) راجع في ترجمة ابن الحكيم وشعره : نفع الطيب ج ٢ ص ٧-٩ ؛ وج ٣ ص ٢٥٨-٢٦٣

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٢٦٣

ومنه :

أنت ولكن بعد طول غياب  
وما زلت والعليا تعني غريمها  
وهيئات من بعد الشباب وشرخه  
خدعت بهذا العيش قبل بلائه  
وفرط لجأ ضاع فيه شبابي  
أعلل نفسي دائماً بمثاب  
يلد طعاعى أو يسوغ شرابي  
كما يحدع الصادى بلمع سراب<sup>(١)</sup>

ومهم ابو حيان الغرناطى ، محمد بن يوسف بن على ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ  
وطاف بالمشرق ، وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) ، وكان فوق تفضله  
فى الحديث والتفسير بارعاً فى اللغة والأدب ، إماماً فى النثر ، ونظم الموشحات ، وقد  
ترك مؤلفات كثيرة فى التفسير واللغة والأدب ، وله شعر كثير ومن نظمته قوله  
فى موشحة :

إن كان ليل داج . وخاننا الإصباح . فنورها الوهاج . يغنى عن المصباح

سلافة تبدو كالكوكب الأزهر  
مزاجها شهد وعرفها عنبر  
يا حبيذا الورد منها وان سكر<sup>(٢)</sup>

وكان الرئيس أبو الحسن على بن الحياى ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج  
وكتابه ، فى طليعة أقطاب النثر والنظم فى تلك الفترة ؛ ولد بغرناطة سنة ٦٧٣ هـ وبرغ  
فى الشعر والأدب ، وتقلب فى مناصب الكتابة حتى غدا رئيساً لديوان الإنشاء ، وكان  
من معاونيه فى الكتابة أبو عبد الله بن الخطيب ، وقد ورث منصبه عقب وفاته وتوفى  
ابن الحياى ضمن ضحايا الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) . ومن شعره قوله :

لله عصر الشباب عصرا  
حفظت ما شئت فيه حفظاً  
فتح للخير كل باب  
كنت أراه بلا ذهب  
حتى إذا ما المشيب وافى  
كده ولتكن بلا إياب

(١) راجع فى اخبار ابن خميس وشعره : نفع الطب ج ٣ ص ١٨٤ - ١٩٤ ؛ وأزهار

الرياض ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٢) راجع ترجمته وشيئا من شعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٥ .  
٢٢ أندلس

ومنه في الوعظ :

يا أيها المسك البخيل إلهك المنفق الكفيل  
أنفق وثق بالإله ترع فان إحسانه جزيل (١)

ومن شعراء ذلك العصر أبو عبد الله بن محمد بن جابر الأندلسي الهواري الضرير ،  
وقد رحل إلى المشرق ، ومدح بعض أمرائه وقصد إلى سلطان ماردين فأجزل صلته ،  
وقد أشار ابن بطوطة الرحالة إلى ذلك عند ذكره في رحلته لسلطان ماردين (٢) ؛  
ولابن جابر موشحات كثيرة ومدائح جيدة في الصحابة وآل البيت ، ومن شعره  
في الغزل قوله :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن  
وما أصل هذا كله غير نظرة  
سوى سكب دمعى في محبتها كسبي  
إلى مقلة منها أصغت لها قلبي  
ومنه :

تجنت فجن في الهوى كل عاقل  
وما وعدت إلا غلت في مطالها  
رأها وأحوال المحب جنون  
كذلك وعد الغايات يكون  
ومنه في الحكم :

مهلاً فما شيم الوفا منقادة  
رتب المعالي لا تنال بحيلة  
لمن ابتغى من نيلها أوطارا  
يوماً ولو جهد الفتي أوطارا  
وقال يتشوق إلى حمراء غرناطة :  
دامت على الحمراء حمر مدامعى  
طال المدى بي عنهم ولربما  
والقلب فيما بين ذلك ذائب  
قد عاد من بعد الإطالة غائب

\* \* \*

وظهر من أقطاب اللغة في تلك الفترة عدة ، منهم أبو بكر محمد بن ادريس  
الفراني القضاعى المتوفى سنة ٥٧٠٧ (١٣٠٧ م) . وقد كتب في علم العروض كتاب  
« الختام المفوض عن خلاصة علم العروض » ومنه نسخة بمكتبة الاسكوريال (٣) .

(١) راجع في ترجمة ابن الجياب وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٩٣ ؛ ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) المستشرق بروكلان في تاريخ الأدب العربي Geschichte der Arabischen Litteratur

ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الحافظ النحوي شيخ ابن الخطيب الأب، وقد ولد بيجان سنة ٦٢٧ هـ وتوفي سنة ٥٧٠٨ (١٣٠٨ م). قال ابن الخطيب في حقه: « انتهت إليه رياسة العربية بالأندلس »؛ وكان عالماً بالقرآن والحديث، مجيداً للنثر والنظم، وولى القضاء بقرطبة، واتصل بسلاطنها الأمير أبي عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر فأكرم مثواه، وقد صنف كتباً عدة في مختلف الفنون، ومن آثاره المنشورة كتاب « صلة الصلة » الذي ألفه ذيلًا على كتاب الصلة لابن بشكوال (١).

ومنهم أبو الحسن علي بن يحيى الفزاري الملقب المعروف بابن البرزى المتوفى سنة ٥٧٥٠ (١٣٤٩ م)، وكان بارعاً في اللغة، وله شعريصفه ابن الخطيب بالضعف والهزال.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي الفخار الإلبيري، كان شيخ النحاة بالأندلس في عصره؛ درس عليه الكثيرون ومنهم ابن الخطيب وابن زمرك، وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٧٥٤ (١٣٥٣ م) (٢).

ونبع من علماء الدين والفقهاء في تلك الفترة، القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصاري الإشبيلي، المتوفى سنة ٥٧٢٥ (١٣٢٣ م) وله كتاب « البرنامج » عن قصة الأندلس (٣) وأبو القاسم أبو عبد الله بن جزى الكلبى القرطبي، وقد ولد سنة ٦٩٣، وتولى الخطابة بقرطبة، وتوفي قتيلاً في سنة ٥٧٤١ (١٣٤٠ م) في موقعة طريف، ومن مؤلفاته كتاب « التسهيل لعلوم التنزيل » والألوار السنية في الألفاظ السنية (٤).

وازدهر التصوف في هذا العصر، وكان من أقطابه يومئذ أبو الحسن علي ابن فرحون القرشي القرطبي، المتوفى سنة ٥٧٥١ (١٣٤٥ م)، وأبو اسحاق إبراهيم ابن يحيى الأنصاري المرسي، وقد ولد في سنة ٦٨٧ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٧٥١ هـ

(١) راجع في ترجمة ابن الزبير، كتاب صلة الصلة المنشور بعناية الأستاذ ليني بروكسسال في المقدمة

ص، و - ح

(٢) فتح الطيب ج ٣ ص ١٨٢ و ١٩٦.

(٣) بروكلمان، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤.

(٤) » » » ج ٢ ص ٢٦٥.

(١٣٥٠م) ، وله كتاب «زهرة الأكام» في قصة يوسف ، وأبو عبد الله محمد ابن محمد الأنصاري المالقي المولود سنة ٦٤٩هـ ، والمتوفى سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) ، وله كتاب «بغية السالك في أشرف المسالك» في مراتب الصوفية وطرائق المريدين (١) .  
وظهر من المؤرخين محمد بن يحيى بن أبي بكر بن سعيد الأنصاري المالكي .  
وقد ولد سنة ٦٧٤هـ ، وتولى الخطابة والقضاء بغرناطة ، وتوفى قتيلا في سنة ٧٤١هـ في موقعة طريف . ومن آثاره كتاب «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان» (٢) .  
ومن الرحل والرواة ، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي ، وقد رحل إلى افريقية والمشرق بين سنتي ٧٣٦ - ٧٤٠هـ ، وكتب عن رحلته كتاب «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق» وانتفع في مؤلفه بما كتبه ابن جبير عن المشرق (٣) .

وأما العلوم فلم تزدهر مثل إزدهارها في الماضي ، ولم تشغل في الحركة الفكرية سوى مجال محدود . وكان من أشهر علماء ذلك العصر يحيى بن هذيل حكيم غرناطة وفليسوفها ، وقد برع في الطب والفلسفة والعلوم والرياضة ، وكان من شيوخ ابن الخطيب (٤) . ونستطيع أن نضع في العلماء المعاصرين أيضاً شيخه أبا عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبي ، وكان من أكابر الأئمة في الفقه ، واختصر عدة من أمهات الكتب مثل كتاب «بهجة المجالس» لابن عبد البر . وكتب كتباً في الهندسة والفلاحة (٥) .

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) «...» ج ٢ ص ٢٦٠ ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب .

(٤) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٥٢ .

(٥) «...» ج ٣ ص ٣٠٢ .

# الفصل الثالث

## عهد النضج والازدهار

تقدم الحركة الفكرية . ابن سلبطور الشاعر . أبو القاسم الحسيني . ابن خاتمة . ابن الخطيب . نشأته وحياته . سفارته الى المغرب وقصيدته للسلطان . وصفه لحياته في الوزارة . سقوطه وجوازه الى المغرب . احتفاء السلطان به وانشاده في حضرته . ابن الخطيب وابن خلدون . ما قاله الأمير ابن الأحمر في تقدير ابن الخطيب . تهنئته للسلطان . عوده الى الأندلس والى تولى الوزارة . وصفه لجهوده يومئذ . ما ينسب اليه من طغيان . فقدته لحظوته وجوازه الى المغرب . كيد خصومه له . اتهامه بالزندقة . تطور الحوادث في المغرب . تفاهم بلاط غرناطة مع سلطان المغرب على الايقاع به . الوزير ابن زمرك يلاحقه في فاس . اتهامه ومصرعه . مؤلفاته وآثاره . أثره في تطور الحركة الأدبية . ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب . نشأته وحياته . مكانته الأدبية . نماذج من شعره وموشحاته . الموازنة بينه وبين ابن الخطيب . بقية الشعراء والأدباء في تلك الفترة . الفقهاء . المؤرخون .

شهدت الحركة الفكرية الأندلسية في مملكة غرناطة ، مرحلة النضج في أواسط القرن الثامن الهجري وأواخره ، وشهدت في النصف الأخير من هذا القرن ، ذروة قوتها وازدهارها . ولا غرو فهذه الفترة هي التي سطع فيها ابن الخطيب ، أعظم مفكرى الأندلس وأعظم كتابها وشعرائها في ذلك العصر . وامتازت هذه الفترة ، بروعة إنتاجها الأدبي في النثر والنظم ؛ وربما كان للأحداث والفن الداخلية الخطيرة التي جازتها الأندلس يومئذ ، أكبر أثر في تغذية هذه الحركة الممتازة ، وإمدادها بمختلف الإنفعالات القوية ، التي طبعت إنتاجها .

وقد بدأت هذه الحركة في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل ، أعظم سلاطين بني نصر ( ٧٣٣ - ٥٧٥٥ ) ، وأشدهم حماسة في تعضيد الآداب والفنون ، واستمرت من بعده طوال القرن الثامن الهجري ، وحفظت بعدد كبير من الأدباء والشعراء الممتازين . وقد استعرضنا الكثير منهم فيما تقدم ، حتى منتصف القرن الثامن ، وسنمضي هنا في استعراض بقية هذا الثبت الحافل حتى أواخر هذا القرن .

كان من أكابر الشعراء في بداية هذه الفترة ، ابن سلبطور شاعر ألمرية ، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمي ، والظاهر أنه قد يرجع إلى أصل نصراني ، كما يدل بذلك اسمه سلبطور (سلفاتور) . نشأ بالمرية ، وبرع في الأدب ، وتدرّب منذ فتوته على ركوب البحر وقيادة السفن ، وناب في قيادة الأسطول عن خاله القائد أبي علي الزنداحي ، واشتهر برائق نظمته . وفي أواخر حياته انحرف عن جادة الصواب ، وانكب على ملاذه وشهوته ، وأضاع كل ثروته . حتى ساءت حالته ، وانحدر إلى هاوية الفقر والبؤس ، فعبر البحر إلى العدو ، وتوفي بمراكش سنة ٧٥٥ هـ ( ١٣٥٤ م ) . ومن شعره يمتدح السلطان حين حل بالمرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم      وريقك أم مسك من الراح تخم  
ووجهك أم باد من الصبح نير      وفرعك أم داج من الليل مظلم  
أعلل منك الوجد والليل ماتقى      وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم  
وأقع من طيف الخيال بزورة      لو أن جفوني بالمنام تنعم (١)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن جزي ، الكاتب الشاعر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢١ هـ ، وانتظم منذ فتوته بين كتاب السلطان أبي الحجاج يوسف ، وحظي لديه ومدحه بطائفة من القصائد الرنانة ، ثم غضب عليه ونكبه ، فغادر الأندلس إلى العدو ، ودخل في خدمة السلطان أبي عنان المريني ومدحه ، وكان بارعاً في النثر والنظم ؛ ذكره ابن الأحرر في «نثر الجمان» وأشاد بمقدرته ، ووصفه بأنه أعظم شاعر في عصره . وكانت وفاته بمراكش سنة ٧٥٧ هـ ( ١٣٥٦ م ) (٢) . وهو الذي أنشأ رحلة ابن بطوطة من مذكرات صاحبها حسبما ينوه بذلك في خاتمة الكتاب (٣) .

ومنهم قاضي الجماعة ، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني ، ولد سنة ٦٩٧ هـ ، وتوفي بغرناطة سنة ٧٦٠ هـ ( ١٣٥٨ م ) ، ولي رئاسة القضاء ، وكان

(١) نفع الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٤٥٠ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٢٨٤ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ٢ ص ١٨٩ وما بعدها .

وفيه يورد بعض شعره .

(٣) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٩٥ ؛ ورحلة ابن بطوطة .

فوق تضلعه في الحديث والفقه ، شاعراً مجيداً ، وكتب في العروض والأدب ، وجمع شعره في ديوان أسمى « جهد المقل » (١) .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الانصاري ، ولد بالمرية سنة ٧٢٤ هـ . وتوفي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) . وكان أديباً وشاعراً مبرزاً . وصفه ابن الخطيب بأنه « الصدر المتفنن ، المشارك القوى الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الدهن ، الجيد القريحة » . وكتب عن مسقط رأسه المرية ، كتاباً أسماه « مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية » . وله ديوان شعر محفوظ بمكتبة الاسكوريال . ومن شعره قوله :

هو الدهر لا يتي على عائد به      فن شاء عيشاً يصطر لنوائبه  
فمن لم يصب في نفسه فمصابه      بقوت أمانيه وفقد حبايبه  
وكتب ابن خاتمة إلى صديقه ابن الخطيب ، حينما أزمع الرحلة عن الأندلس ، رسالة مؤثرة يخاطبه فيها بقوله : « انكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وتمام زينتها ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياستها أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، والذي عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها » (٢)

نعرض بعد ذلك ، إلى ألمع فترة في الحركة الفكرية ، في ظل مملكة غرناطة ، وهي الحركة التي كان قطبها ومحورها ، أعظم مفكرى الأندلس وأعظم شعرائها وكتابها ، في القرن الثامن الهجري ، ونعني لسان الدين بن الخطيب . وقد أشرنا فيما تقدم إلى نشأة ابن الخطيب ، واستعرضنا طرفاً من حياته السياسية ، ونريد هنا أن نبسط القول في حياته الفكرية والأدبية .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ، ولد في لوشه من أعمال غرناطة ، في بيت من أكرم بيوت الأندلس في شهر رجب

(١) راجع نفع الطيب ج ٣ من ١٠٧ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ١٨٤ و ٤١١ وما بعدها ؛ وكذلك بروكلمان ، المصدر السابق

سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) ، ثم انتقل بيتهم من لوشة إلى غرناطة ، وخدم أبوه عبد الله في القصر والحاص في عهد السلطان يوسف أبي الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة ، ودرس الطب والفلسفة والشريعة والأدب ، وبرز في النثر والنظم منذ حداثة ، ولما توفي أبوه في سنة ٧٤١هـ حل مكانه في خدمة القصر ، وهو فقي في عنفوانه ، وتولى أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الحبيب ، وزير السلطان يوسف . ولما توفي ابن الحبيب في الوباء الكبير سنة ٧٤٩هـ ، خلفه في الوزارة والكتابة ، إلى جانب كبير الوزراء الحاجب أبي النعم رضوان ، وندبه السلطان لبعض السفارات والمهام السياسية . ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥هـ) ، وخلفه ولده محمد الغني بالله ، استمر الحاجب رضوان في الاضطلاع برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب إلى جانبه في منصبه ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولايته (أواخر سنة ٧٥٥هـ) سفيراً إلى السلطان أبي عنان سلطان المغرب ، على رأس وفد من وزراء الأندلس ، يستنصره ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة . وأنشد ابن الخطيب بين يدي السلطان قصيدة يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدر      علاك ما لاح في الدجى قهراً  
ودفعت عنك كف قدرته      ما ليس يستطيع دفعه البشر  
وجهك في النائبات بدر دجى      لنا وفي المحل كفك المطر  
والناس طرا بأرض أندلس      لولاك ما أوطنوا ولا عمروا  
وجملة الأمر أنه وطن      في غير عليك ماله وطر

فاهتز السلطان لقصيدته ، ووعدهم باجابة ملتمسهم وتحقيق رغباتهم (١) :  
ثم وقعت الثورة في غرناطة سنة ٧٦١هـ (١٣٥٦م) ، وقتل الحاجب رضوان ، وأقصى الغني بالله عن الملك ، وفر إلى وادي آش ، وخلفه على العرش أخوه إسماعيل ، وولى ابن الخطيب الوزارة للملك الجديد حيناً ، ولكن سرعان ما غضب عليه وأمر باعتقاله . ويصف لنا ابن الخطيب في ترجمته لنفسه ، في كتاب الإحاطة ، هذه المراحل الأولى من حياته العامة في قوله : «فقلدني السلطان سره ( يريد أبا الحجاج ) ولما يستكمل الشباب ، واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستثناني بدار ملكه ،

ورمي إلى بجاتمه وسيفه ، واثتمنى على صون حضرته وبيت ماله ، وسجوف حرمه ،  
ومعقل أمتاعه . ولما هلك السلطان ، ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ،  
وقصر المشورة على نصحي ، إلى أن كانت الكائنة ، فاقنتى فى أخوه المتغلب  
على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحنة من أعوان  
ثورته ، على القبض على ، فكان ذلك » .

وتدخل السلطان أبو سالم ملك المغرب ، فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ،  
وكانت تربطه به مودة وصداقة ، مذ كان أيام محنته يلود بحمايته بغرناطة ، وأرسل  
إلى ملك غرناطة الحديد سفيراً يطلب إجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ،  
فأجابه السلطان إسماعيل إلى مطلبه ، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب  
(المحرم سنة ٥٧٦١هـ) ، واستقبلهما السلطان أبو سالم فى فاس بترحاب ، واحتفل  
بقدمهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدته المشهورة ، التى  
يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من محبرة ذكر  
وهل باكر الوسمى داراً على اللوى  
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى  
وجوى الذى ربي جناحى وكره  
ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى  
كففنا بك الأيام عن تغلواثها  
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى  
ولما أتينا البحر نرهب موجه  
ومنها :

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى  
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا  
ونخذ يا إمام الحق بالحق ثاره  
وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر  
بيا للمرين جاءه العز والنصر  
ففى ضمن ماتأتى به العز والأجر (١)

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى نفع الطيب ج ٣ من ٤٥ - ٤٧ .

وكان لإنشاد ابن الخطيب في السامعين أعظم وقع . ويقول لنا ابن خلدون وقد كان من شهود ذلك الحفل ، إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظمين ، اللذين تجمع بينهما مشابهاة عدة ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره في التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز في حوادث عصره ، وفي توجيه شئونه ؛ وكان ابن خلدون يشغل في دول المغرب ، نفس المركز الذي يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر في المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التي يستأثر بها ابن الخطيب بالأندلس . وتوثقت بين المفكرين العظمين مدى حين ، أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغني بالله ؛ وكان كل منهما يقدر صاحبه ويحل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والإجلال ، فيقول لنا ابن خلدون مثلاً في ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملاً الدولة بمدايحه ، وانتشرت في الآفاق قدماه » . ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبراعته في الإدارة والحكم (١) .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه في تلك العبارات الرثائية :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه في الكتب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم في الماضي ، وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته في الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويحمل (٢) .

وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا ، وتوالت مدائح للسلطان أبي سالم ، ومنها قصيدة طويلة ينهى فيها السلطان بفتح تلمسان (٥٧٦١) هذا مطلعها :

(١) كتاب العرج ٧ من ٣٣٢ وما بعدها ؛ وراجع كتابي ابن خلدون ص ٣٦ — ٣٩ ؛ وقد أورد المقرئ هذه القصيدة كاملة في أزهار الرياض (ج ١ ص ١٦٩ وما بعدها) .

(٢) راجع فتح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ و٤٠٥ .

أطاع ليسانى فى مديحك إحسانى      وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان  
فأطلعها تفر عن شنب المني      وتسفر عن وجه من السعد جيانى  
كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا      وجف بجذ الورد عارض نيسان  
كما صفقت ريح الشمال شموها      فبان ارتياح السكر فى غصن البان (١)

وبعث إلى السلطان فى الوقت نفسه من سلا، برسالة بليغة يهنته فيها بذلك  
الفتح الكبير (٢).

وأنفق ابن الخطيب ومليكه فى المنى زهاء عامين ونصف، حتى مهدت  
حوادث الأندلس لسقوط المختصب، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب  
على المغرب، أن يسترد ملكه، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٥٧٦٣ (١٣٦١ م)،  
ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة؛ ولكنه لم ينعم تلك  
المرّة بسابق حظوته ونفوذه، إذ كان ينافسه فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى،  
الذى قر به السلطان وأولاه عطفه، لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه. ونشبت  
بين الرجلين منافسة شديدة، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ  
عثمان وآله، ويذكره بسابق غدرهم، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم  
(رمضان سنة ٥٧٦٤)، وبذا خلا له الجو، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان.

ويصف لنا ابن الخطيب، جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله: «ثم صرفت  
الفكر إلى بناء الزاوية والمدسة والتربة، بكر الحسنات بهذه الخطة، بل بالجزيرة  
فيما سلف من المدة، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان، وعفاف الحاشية  
والأمن. وروم الثغور، وتشمير الجباية، وإنصاف الحماة والمقاتلة، ومقارعة الملوك  
المجاورة، فى إثثار المصلحة الدينية، والصدع فوق المنابر، ضماناً من السلطان،  
بترياق سم الثورة، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة...» (٣).

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى، على أن ابن الخطيب جنح

(١) وردت هذه القصيدة بأكثرها فى نفع الطيب ج ٣ ص ١٦ - ١٩؛ وفى بعض أجزاءها بنحو  
ابن الخطيب نحو أبى البقاء فى مرثيته الأندلسية.

(٢) راجع هذه الرسالة فى نفع الطيب ج ٣ ص ١٩ و ٢٠.

(٣) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ١١.

عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تديير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته . وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، ففتنوا في السعاية فيه » (١) .

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى في الوزارة ، وهو يستأثر بكل سلطة ، ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحسد . وكان السلطان يعرض في البداية عن الإصغاء لأعدائه والوشاة به ، ولكنه بدأ في النهاية يتأثر بسعائيتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها في نفر من خاصته ومعه ولده علي ؛ وما كاد يصل إلى جبل الفتح ، حتى عبر البحر إلى سبتة ( ٥٧٧٣ هـ ) ، وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المريني ، ملك المغرب . وكان السلطان يقيم يومئذ في تلمسان ، فقصده إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة ، وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى في استقدام أسرة الوزير المنفي ، فأتى بها معززة مكرومة ، وتبوا ابن الخطيب في بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة ، بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيئته ، فاتهموه بالزندقة والخروج عن شريعة الإسلام ، والظن في النبي ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدتين ، ونسبوا إليه في ذلك أقوالاً ومقالات أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه في الوزارة أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية ؛ وتولى صوغ الإتهام القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي عدو ابن الخطيب ، وأقوى بوجوب حرق كتبه التي تتناول العقائد والأخلاق ، فأحرقت في غرناطة بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء « لما تضمنته من المقالات التي أوجبت ذلك عندهم وحققته لديهم » ( سنة ٧٧٣ هـ ) (٢) .

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥ .

(٢) كتاب الرقبة العليا ، أو تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي المنشور بعناية الأستاذ

ليني بروئفسال ص ٢٠٢ .

ووجه أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن في حق النبي ، ويقول : « فانه نقل عنكم في هذا الباب أشياء منكورة ، يكبر في النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها وديناها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم » . ثم يعدد مثالبه في الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر منكم من العيث ، في الإبشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل والغدر ، في غالب الأحوال ، للشريف والمشروف والخادم والمخدوم » (١) . وسجل القاضي أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضي رساله إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب بتنفيذ حكم الشرع في الوزير الملحد وهو الإعدام ، فأنفذ السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » ورددتم خائبين ، وزاد في إكرام ابن الخطيب ورعايته (٢) .

ولما توفي السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل ( ٧٧٤ هـ ) ، وخلفه ولده السعيد طفلاً على العرش غادر بلاط المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، ونزل بفاس ، واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته في الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت في شمال المغرب ، على يد بعض الزعماء من بني مرين . وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم . وحاول الوزير ابن غازي مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير ، وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك في أوائل سنة ٧٧٦ هـ ( ١٣٧٤ م ) .

وكان ابن الخطيب قد لجأ في أثناء ذلك إلى البلد الجديد ( ضاحية فاس ) ،

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ ونفع الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر وزعماء الفتنة . بشأن ابن الخطيب ومصيره ؛ فلما وقع الانقلاب بادر السلطان بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب جهداً ، فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما نعى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربتة ، وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، استدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الزندقة ، استناداً على ماورد فى بعض رسائله ، وعزر وعذب أمام الملاء ، وأفى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ثم دفنت .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب ، والأحقاد السياسية الوضيعة ؛ وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر ، كان يرددها وهو فى سجنه ، ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره الحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت      وجئنا بوعظ ونحن صُموت  
وأنفاسنا سكنت دفعة      كجهر الصلاة تلاه القنوت  
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً      وكنا نقوت فها نحن قوت  
وكنا شمسَ سماء العلاء      غربن فناحت عليها البيوت  
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذى لا يفوت  
فمن كان يفرح منكم له      فقل يفرح اليوم من لا يموت (١)

\* \* \*

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً متنوعاً ، من مؤلفات عديدة ، وديوان شعر حافل ، ورسائل أدبية وسياسية لاتحصى ؛ ومن

(١) كتاب العبرج ٧ من ٣٤١ و٣٤٢ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ .

أشهر رسائله بنوع خاص تلك التي كان يوجهها إلى أهل الأندلس من وقت إلى آخر ، يحثهم فيها على الجهاد ، والدود عن وطن يترصد به العدو ، ويعتزم القضاء عليه ، وهي رسائل تدلى بما كان لابن الخطيب من فكر ثاقب وبصيرة نافذة ، هذا فضلاً عما تمتاز به من روعة البيان والأسلوب .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الإحاطة في أخبار غرناطة . مركز الإحاطة بأدباء غرناطة . الحلل المرقومة (بالإسكوريال) . اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية . رقم الحلل في نظم الدول . الحلل الموشية في الأخبار المراكشية . التاج المحلى في مساجلة القدر المعلى . (وهو أيضاً تاريخ لغرناطة) . منفعة السائل في المرض الهائل . (وهو يتعلق بالوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ) (بالإسكوريال) . ریحانة الكتاب (بالإسكوريال) . الديوان (بالإسكوريال) . السحر والشعر . الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة (١) . ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية ، وقد نقل إلينا المقرئ منها العدد الجم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يتبادلته معه منها (٢) . ويفرد المقرئ في كتابه نفع الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب وأخباره وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ، وقد نقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله ، فصولاً وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهي من أبدع ما كتب (٣) .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية ، ومن أشهر نظمته الموشحة الذائعة الصيت التي مطلعها :

جارك الغيث إذا الغيث همي      يازمان الوصل بالأندلس  
لم يكن وصلك إلا حلماً      في الكرى أو خلسة المختلس  
إذ يقود الدهر أشتات المنى      ينقل الحظوظ على ما يرسم

(١) وقد انتهى إلينا معظم هذه الكتب ، ونشر عدد منها مثل الإحاطة (الأجزاء الأولى) ، واللمحة البدرية ، والحلل الموشية ، ورقم الحلل .

(٢) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٢١١ - ٤٣٠ ؛ وقد أورد لنا المقرئ في أزهار الرياض تفصيلاً

أوفى لآثار ابن الخطيب (ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٠) .

(٣) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٤١٩ - ٤٢٦ .

زمرأ بين فرادى وثنا مثل ما يدعو الوفود الموسم  
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم (١)

كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر في عصره ، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها ، في أواسط القرن الثامن الهجري ، تجتمع إليه وتلتف حوله ؛ وقد أتينا على ذكر بعض أكابر الشعراء من معاصريه ، المتقدمين عنه ، مثل ابن الجياب وابن سلطور وابن خاتمة . وسنأتي هنا على ذكر أقطاب الشعر والأدب من معاصريه المتأخرين عنه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية ، قد طبعت هذه المرحلة كلها ، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية ، بطابعها القوي ، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعة ، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية ، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري .

بل يلوح لنا أن الأثر القوي الذي بثته هذه المدرسة الأدبية الباهرة ، لم يقتصر على مملكة غرناطة ، بل تعدى حدود الأندلس المسلمة إلى قواعد الأندلس الذاهبة ، التي دخلت في حوزة النصارى وتدجن أهلها ، فبدا بها شعاع ضئيل من النبوغ الأدبي القديم ، وظهر فيها بعض الشعراء الموهوبين ، بالرغم من مضي أكثر من قرن على خضوعها لحكم اسبانيا النصرانية . فمثلاً نجد بين كتاب بلنسية وشعرائها يومئذ ، الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذري ، ومما كتبه لابن الخطيب في بعض الشئون :

إني بمجدك لم أزل مستيقناً  
أن لا يهدم بالتغير ما بنى  
إذ أنت أعظم ماجد يعزى له  
صنع وأكرم من عفا عن جنى  
وكتب له أيضاً :

إن كان دهر قد أساء وجارا  
فدمام مجدك لا يضيع جارا  
فلأنت أعظم ملجأ ينجي إذا  
ما الدهر أنجد موعداً وأغاراً (٢)

(١) راجع هذه الموشحة بأكملها في نفع الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٤٢٦ .

وكان الوزير ابن زمرك ، تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، أعظم شخصية تزعمت من بعده الحركة الأدبية بالأندلس ؛ وهو محمد بن يوسف بن محمد الشهير بأبي عبد الله بن زمرك ، أصله من شرقي الأندلس ، ونزحت أسرته إلى غرناطة ، واستقرت بربض البيازين . وبه ولد أبو عبد الله سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) ودرس دراسة حسنة في غرناطة وفاس ، وخدم حيناً في بلاط السلطان أبي سالم المريني . ولما نفي السلطان الغني بالله إلى المغرب ، اتصل به ابن زمرك وانقطع إليه ، ثم عاد حين استرد ملكه ، فولاه كتابة السر وعمره بعطفه . وظهر ابن زمرك يومئذ ببارع أدبه ، وروعة نظمه ونثره ؛ وينوه ابن الخطيب في الإحاطة بذكائه وخلالله ، وتفوقه في الدرس والأدب ، ويصف شعره بأنه « مترام إلى هدف الإجابة ، كلف بالمعاني البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة » .

وعمل ابن زمرك في كتابة السر في كنف ابن الخطيب وتحت رعايته . ولكنه كان ضالماً مع خصومه ، فلما انقضت العاصفة على ابن الخطيب وأصابته الحنة ، كان ابن زمرك في طليعة أعدائه الساعين إلى هلاكه . وقد خلفه في الوزارة عقب فراره ، وهو الذي تولى مهمة السعي لدى بلاط فاس في محاكمته وإعدامه حسبما أسلفنا . واستمر ابن زمرك على حظوته ونفوذه أعواماً طويلة ، ولكنه كان لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، يثير حوله كثيراً من البغض والخصومة . وفي أواخر عهد الغني بالله فقد حظوته ونفوذه ، واعتقل ونفي خارج غرناطة ؛ ولكنه عاد بعد وفاته إلى الحضرة . وفي بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثاني ، أعيد إلى الوزارة ، فأساء السيرة ، واشتد عيظه وطغيانه ، وكثر خصومه . وفي ذات ليلة من سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) دهمه في منزله جماعة من المتآمرين ، فقتلوه وولديه وخدمه شر قتلة . وينوه المقرئ بما في ذلك من عبر الدهر إذ كان ابن زمرك هو الساعي إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب ، فكان أن دارت عليه الدائرة ، وقتل مثله ولكن بصورة أفسى وأشنع (١) .

(١) نفع الطيب ج ٤ ، ص ٢٨٦ — ٢٩٠ ، وينقل إلينا المقرئ ترجمة ابن زمرك عن كتاب المعاهر الأمير اسماعيل بن الأحمر ، وينقل إلينا في أزهار الرياض كثيراً من موشحاته (ج ٢ ص ١٧٧ وما بعدها) . وقد أورد المستشرق بروكلمان (ج ٢ ص ٢٢٩) تاريخ مقتله في سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) ولكن رواية ابن الأحمر هي الأرجح .

ولابن زمرك شعر كثير جيد نقل إلينا المقرئ منه قصائد وموشحات عديدة،  
فن شعره قوله يمتدح سلطان الأندلس الغنى بالله في سنة ٥٧٦٥ :

لعل الصبا إن صافحت روض نعيان  
وماذا على الأرواح وهي طليقة  
وما حال من يستودع الريح سره  
وكالطيف أستقره في سنة الكرى  
إمام أعاد الملك بعد ذهابه  
فغادر أطلال الضلال دوارسا  
وشيدها والمجد يشهد دولة

ومن قوله في قصيدة طويلة يصف فيها دار الملك (الحمراء) :

فكم فيه للأبصار من متنزه  
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به  
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا  
وكم حلة قد جللت بحليها  
وكم من قسي في ذرة ترفعت  
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها  
سوارى قد جاءت بكل غريبة  
به المرمر المجلو قد شف نوره  
به البحر دفاع العباب تخاله  
إذا ما جلت أيدي الصبامتن صفحة

ومن قوله يشيد بأعمال الأميرين سعد ونصر، ولدى السلطان ، في ميدان

الجهاد :

يا آل نصر أنتم سرج الهدى  
الفاخون لكل صعب مقفل  
والباسمون إذا الكماة عوايس  
أبناء أنصار النبي وحزبه  
في كل خطب قد تجهم مظلم  
والفارجون لكل خطب مبهم  
والمقدمون على السواد الأعظم  
وذوى السوابق والحوار الأعظم

ومن قوله في الغزل :

قيادى قد تملكه الغرام      ووجدى لا يطاق ولا يرام  
ودمعى دونه صوب الغوادى      وشجوى فوق ما يشكو الحمام  
إذا ما الوجد لم يبرح فوادى      على الدنيا وساكنها السلام

ولابن زمرك موشحات كثيرة رائعة، ومنها موشحته الشهيرة في الإشادة بغرناطة ومحاسنها إذ يقول :

نسيم غرناطة عليل      لكنه يبرئ العليل  
وروضها زهره بليل      ورشفه ينقع الغليل  
سقى بنجد ربا المصلى      مباكراً روضه الغمام      سقى بنجد ربا المصلى  
تبسم الزهر في الكمام      والروض بالحسن قد تجلى      ووجد النهر عن حسام  
ودوحها ظله ظليل      يحسن في ربعه المقييل  
والبرق والجو مستطيل      يلعب بالصارم الصقييل  
عقيلة تاجها السبيكة      تطل بالمركب المنيف      كأنها فوقه مليكة  
كرسيها جنة العريف      تطلع من عسجد سبيكة      شوسها كلما تطيف  
أبدعك الخالق الجميل      يامنظراً كله جميل  
قلبي إلى حسنه يميل      وقلبنا قد صبا جميل<sup>(١)</sup>

ونكتفى بما تقدم في الاقتباس من شعر الوزير ابن زمرك ، ويلوح لنا أنه قد يتفوق في شاعريته على أستاذه ابن الخطيب ، وأن إنتاجه الشعري ولاسيما في الموشحات قد يتفوق على إنتاج أستاذه ، على أنه لا ريب أنه يقصر عن مجارة ابن الخطيب ، في كثير من نواحي التفكير والإنتاج الأخرى .

\* \* \*

وظهر من أعلام تلك المدرسة الزاهرة، إلى جانب ابن الخطيب وابن زمرك، عدة آخرون من الشعراء والكتاب ، منهم أبو سعيد فرج بن لب ؛ ولد سنة ٧٠١هـ وتوفى سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) ، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية (جامعة غرناطة) ،

(١) راجع ترجمة ابن زمرك وهي التي نقلها المقرئ عن ابن الأحرار، في فتح العليب ج ٤ ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ وقد نقل إلينا المقرئ كثيراً من قصائده وشعره (ج ٤ ص ٢٩٦ - ٣٥٤)

وقد ولى خطابة الجامع الأعظم حيناً ، وكان فوق تطلعه في الفقه شاعراً  
مجيداً ، وقد ترك لنا مجموعة من الفتاوى المشهورة ، وطائفة من الشعر الجيد ، ومن  
نظمه قوله :

خذوا للهوى من قلبي اليوم ما أبى      فما زال قلبي كله للهوى رقاً  
دعوا القلب في لظى الوجد ناره      فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقى  
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا بهلقوا      فكل الذي يلقون بعض الذي ألقى  
فان كان عبد يسأل العتق سيداً      فلا تبغى من مالكي في الهوى عتقاً<sup>(١)</sup>

ومنهم القاضي أبو محمد بن عطية بن يحيى الحاربي كاتب الإنشاء ، وكان  
بارعاً في النظم والنثر وخطيباً مفوهاً ، أصله من وادي آش وبها ولد سنة ٧٠٩هـ وتولى  
القضاء بها . ووفد على غرناطة سنة ٧٥٦هـ ودرس على ابن الخطيب وغيره من أكابر  
الشيوخ ، وتولى الكتابة السلطانية حيناً . ومن شعره قوله :

ألا أيها الليل البطيء الكواكب      متى ينجلي صبح بليل المسآرب  
وحتى متى أرعى النجوم مراقباً      فمن طالع منها على إثر غارب  
أحدث نفسي أن أرى الركب سائراً      وذنبى يقصيني بأقصى المغرب  
فلا فزت من نيل الأمانى بطائل      ولا قمت في حق الحبيب بواجب<sup>(٢)</sup>

ومنهم الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن السلطان أبي الحجاج يوسف  
(يوسف الثاني) المعروف بالأمير ابن الأحمر ، وقد سبقت الإشارة إليه . وكان  
أديباً ضليعاً ، وقد تناول في كتابه « نثر الجمان » ، أكابر الكتاب والشعراء في  
القرن الثامن الهجري ، وأفاض بنوع خاص في ذكر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ،  
ونقل عنه المقرئ في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، معظم ما كتب عن  
أدباء عصره ، ونقل عنه بالأخص كتابه عن ابن زمرك حسبنا بينا في موضعه ،  
وعاش الأمير ابن الأحمر في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري . ومنهم  
أبو عبد الله الشريشي تلميذ ابن الخطيب ومساعدته (سكرتيره) ، وكان مؤدباً  
لأبناء السلطان ، وهو الذي تولى نقل كتاب الإحاطة لابن الخطيب من مسوداته ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٧ و٢٦٨ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ — ٣٦٥ .

بتكليف منه لاشتغاله بشئون الوزارة ، فجاء في سنة مجلدات كبيرة ، وكان الشريشي في الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة (١) .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذه الجمهرة الممتازة من الشعراء والأدباء ، عدة من الفقهاء والمؤرخين ، منهم ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن علي اليعمرى الأندلسي المتوفى سنة ٥٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) ، وكان فقيهاً ومؤرخاً ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب» ، وهو تراجم طبقات المالكية . وقد طبع مراراً بالمغرب ومصر ، وكتاب «طبقات علماء العرب» ومن نسخة بالاسكوريال (٢) .

ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي المالقي النباهي ؛ ولد بمالقة سنة ٥٧١٣ هـ . ودرس على أشياخها . ثم وفد على غرناطة ، وتولى القضاء ، ثم عين كاتباً بالديوان . وانتهى إلى ولاية قضاء الجماعة بغرناطة . ونشبت بينه وبين ابن الخطيب خصومة شديدة ، وتبادلا الطعن والهجاء اللاذع في عدة رسائل ومقالات . ولما نكب ابن الخطيب وغادر الأندلس ، كان النباهي في مقدمة متهميه بالكفر والزندقة والساعين إلى هلاكه حسباً قدمنا . وتوفى في أواخر القرن الثامن . ومن آثاره الباقية كتاب «نزهة البصائر والأبصار في تاريخ الدولة النصرية» كتبه في سنة ٥٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) ومنه نسخة في الاسكوريال ، وكتاب «المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» وهو تاريخ لقضاة الأندلس . وقد نشر أخيراً (٣) . ومنهم الفقيه أبو القاسم بن سلمون الكناني الغرناطي قاضي الجماعة بغرناطة المتوفى سنة ٥٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، ومن آثاره كتاب «العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والأحكام» (٤) ، وأبو عبد الله محمد بن علي بن اسحق الرندي المتوفى سنة ٥٧٩٢ هـ

(١) نفع الطيب ج ٤ ص ٣٦٢

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ؛ وبروكلمان : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٣) وقد قام على نشره الاستاذ ابني بروثنسال ، ونشره بعنوان « تاريخ قضاة الاندلس » . (الفاخرة سنة ١٩٤٨) . وراجع في ترجمة النباهي الكتاب المشار اليه (المقدمة) وأزهار الرياض

ج ٢ ص ٥ — ٧ . وراجع بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) بروكلمان المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(١٣٨٩م) . وكان من أقطاب التصوف وقد كتب كتاب « الرسائل الكبرى »  
وغاية المواهب العلية بشرح الحكم العطائية » (١) .

وأما في ميدان العلوم فلم نعثر على ما يدل على ازدهارها في تلك الفترة ،  
على أننا نستطيع أن نذكر أن ابن الخطيب كان إلى جانب أدبه الممتاز ، عالماً  
بالطب والفلسفة ، وكان من تلاميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح الفية ابن سينا ،  
وشرحه عليها من أقيم الشروح (٢) .

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) راجع فتح الطيب ج ٤ ص ٣٦٣ .

# الفصل الرابع

## العصر الأخير والآثار الباقية

ركود الحركة الفكرية • الشعراء الذين ظهوروا في هذا العصر • القاضي أبو بكر بن عاصم • والده أبو يحيى • بعض الكتاب والأدباء • الشريف العقيلي وزير أبي عبد الله • ما حدث بعد سقوط غرناطة • القضاء على اللغة العربية • الأدب الموريسكي • محاولة إسبانيا القضاء على تراث الأندلس • إيداع الكتب العربية الباقية بقصر الإسكوريال • المجموعة العربية في الإسكوريال • حجبها عن أعين الباحثين • معجم الغزيري • انتفاع البحث الحديث بالآثار الأندلسية • معجم المستشرق ديرنبور • الفن في الأندلس • تطوره منذ القرن الرابع الهجري • ازدهاره أيام الناصر وابنه المستنصر • تقدمه أيام الطوائف • ركوده أيام المرابطين والموحدين • الفن في مملكة غرناطة • الموسيقى الأندلسية • الآثار الباقية •

بدأت مملكة غرناطة منذ أوائل القرن التاسع الهجري تستقبل عصرها الأخير ، وأخذ الاستقرار والسلام النسبي الذي تمتعت به حيناً في أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، يتصرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات والانقلابات الداخلية المتوالية ، وتواجه في الوقت نفسه طواع الصراع الأخير بينها وبين إسبانيا النصرانية ، التي أخذت منذ منتصف القرن التاسع ( القرن الخامس عشر الميلادي ) توثق أو اصر اتحادها ، وتستجمع قواها لإنزال ضربتها الأخيرة بعدتها القديمة الثالثة إسبانيا المسلمة .

وما كانت الحركة الفكرية لتزدهر في مثل هذا الأفق الكدر ؛ ولذا نجد في هذا العصر فراغاً ملحوظاً في ميادين التفكير والأدب في الأندلس المحتضرة ، ولا نعتز إلا بقلّة من المفكرين والأدباء ، الذين ظهوروا في تلك الفترة متفرقين متباعدين . وكان ممن ظهر في ميدان التفكير والأدب في تلك الفترة على بن عاصم شاعر السلطان يوسف الثاني وقد جمع له مجموعة شعرية في سنة ٥٧٩٣ ( ١٣٩١ م ) (١) . والقاضي أبو بكر محمد بن عاصم القيسي الغرناطي ، وقد كان أعظم شخصية

ظهرت في هذا الميدان في مملكة غرناطة في أوائل القرن التاسع الهجري . ولد بقرطبة سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) وتوفي بها سنة ٨٣٩هـ (١٤٢٦م) ، وبرع في النحو والمنطق والبيان والفقهاء ، وتولى الوزارة للسلطان يوسف الثاني سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) ، ثم ولى قضاء الجماعة بقرطبة ، وبرز في النثر والنظم ، ووضع عدة قصائد وأراجيز ، تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول ، والقراءات والفرائض والنحو وغيرها . وله كتاب «تحفة الأحكام في نطق العقود والأحكام» ، وهو مختصر في الفقه ، وقد طبع بمصر وترجم إلى الفرنسية . وله أيضاً كتاب «حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر» كتبه للسلطان يوسف . ويعرف بابن الخطيب الثاني لبراعته وجودة نثره ونظمه (١) .

وكذلك برع ولده العلامة الفقيه أبو يحيى بن عاصم في النثر والنظم ، وتولى كأبيه منصب الكتابة والوزارة ، وكتب شرحاً على كتاب أبيه «تحفة الأحكام» وكتب رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة في عصره ، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ، ووصف فيها أساليب السياسة الإسبانية ، في الكيد والتفريق بين المسلمين ، أسماها «جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى» . ونقل إلينا منها المقرئ في أزهار الرياض نبذة عديدة تشهد بمقدرة صاحبها ، وعميق تفكيره ورائق أسلوبه (٢) .

وأبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلي الإشبيلي ، وقد كتب سنة ٨٣٩هـ (١٤٢٥) كتاب «الدخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق» (٣) . ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري ، تضمحل الحركة الفكرية في مملكة قرطبة شيئاً فشيئاً . ولا غرو فقد كانت قرطبة تخوض في تلك الفترة بالذات ، مرحلة الصراع الأخير ، وكانت الحرب الأهلية تمزق أوصالها ، وخطر الفناء الداهم يبدو لها قوياً في الأفق .

يبد أن شعاعاً أخيراً كان يبدو في تلك الظلمات المدممة . فبرى في أواخر

(١) راجع نصح الطيب ج ٣ ص ٨ و ٩ : وبركلمان : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٤

(٢) راجع أزهار الرياض ، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها ، و ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) بروكلمان : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٩ وقد طبع الكتاب المشار إليه بالقاهرة

القرن التاسع، في الوقت الذي كانت غرناطة تسلم فيه أنفاسها الأخيرة، عدة من المفكرين والأدباء الذين يستحقون الذكر والتنويه .

وكان من هؤلاء القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن القاسم الإشبيلي المعروف بابن الأزرق، أصله من وادي آش وتولى قضاء الجماعة بغرناطة . وكان بارعاً في النثر والنظم والتاريخ . ومن آثاره كتاب في السياسة الملكية عنوانه : « الإبريز المسبوك في كيفية أدب الملوك » (سنة ٥٨٣٨ هـ) . وكتاب « بدائع السلك في طبائع الملك » لخص فيه محتويات مقدمة ابن خلدون وعلق عليها ، وأتى في موضوعها بزيادات جديدة ، وكتاب « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » . ولما ساءت الأحوال في غرناطة وأشرفت على السقوط ، عبر البحر إلى تلمسان ، ثم ارتحل إلى المشرق<sup>(١)</sup> ، ونزل بالقاهرة في عصر السلطان الأشرف قايتباي ، واتصل به ، وحاول أن يستحث همته لتسيير جيش إلى الأندلس لاسترداد غرناطة<sup>(٢)</sup> ، ومن شعره المؤثر حين نزل النصراري بمرج غرناطة :

|                              |   |
|------------------------------|---|
| مشوق بجيمات الأجابة مولع     | تذكره نجد وتغريه ألع                      |
| مواضعكم يا لأئمين على الهوى  | فلم يبق للسلوان في القلب موضع             |
| ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة   | ومن لي بجفن تنهمي منه أدمع                |
| رويدك فارقب للطائف موقعاً    | وخل الذي من شره يتوقع                     |
| وصبراً فان الصبر خير تميمة   | ويافوز من قد كان للصبر يرجع               |
| وبت واثقا باللطف من خير راحم | فألطافه من لمحة العين أسرع <sup>(٣)</sup> |

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحداد الشهير بالوادي آشي ، وهو أيضاً من أهل وادي آش ، وكان أديباً بارعاً وله تعليقات كثيرة على أدباء عصره ، وقد غادر غرناطة قبيل سقوطها بقليل ونزل بتلمسان<sup>(٤)</sup> .

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٧١ ، وج ٣ ص ٣١٨ و ٣١٩ . وقد طبع كتاب الإبريز المسبوك بالجزائر

(٢) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) أزهار الرياض ج ٣ ص ٣١٨ و ٣١٩ .

(٤) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و ٧١ .

وأبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي ، وقد ولد في بسطة ودرس في غرناطة وتلمسان وتونس ، ورحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ، ثم استقر بعد عوده في غرناطة . ولما اشتد ضغط النصارى على غرناطة عبر البحر إلى تلمسان ، وعاش هناك حيناً آخر حتى توفي سنة ٨٩١ هـ ( ١٤٨٦ م ) . وقد برع البسطي في الرياضيات ووضع كتباً في الحساب والجر (١) .

وأبو الحسن علي بن قاسم بن محمد التجيبي الرقاق . وقد درس في غرناطة وفاس وتولى الخطابة في غرناطة . ولما سقطت غرناطة في يد النصارى ، عبر البحر إلى المغرب ، وتوفي سنة ٩١٢ هـ ( ١٥٠٦ م ) . ومن آثاره كتاب « المنهج المنتخب إلى أصول المذهب » في الفقه المالكي (٢) .

على أن أعظم شخصية ظهرت في تلك الفترة القائمة في ميدان التفكير والأدب ، هي شخصية الوزير والكاتب الشاعر أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي المعروف بالشريف العقيلي ، وزير أبي عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وكتابه . وكان فوق تضلعه في الفقه ، إمام عصره في النثر والنظم ، وقد وصفه الوادي أشي بأنه « شاعر العصر ، مالك زمامي النظم والنثر » وبأنه « إمام هذه الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة » . ووُصف أيضاً بحق بأنه خاتمة أديباء الأندلس .

ومن شعره يمدح السلطان أبي عبد الله حينما ولاه منصب الكتابة قوله :

|                           |                              |
|---------------------------|------------------------------|
| أوجه سعدى انحط عنه اللثام | أم بدر ألقى فض عنه الغمام    |
| كأنما أقبس نور البها      | من وجه مولانا الإمام المهمام |
| ابن أبي الحسن الأسرى الذي | قد كان للأملاك مسك الختام    |
| ضرغام قد أنجب شهباً له    | في صدق بأس ومضاء اعترام      |
| دام له النصر الذي جاءه    | والسيف من طلي أعاديه دام     |

ومنه قوله حينما نزل النصارى بمرج غرناطة :

|                  |                  |
|------------------|------------------|
| بالطبل في كل يوم | وبالنفير نـسـراع |
| وليس من بعد هذا  | وذلك إلا القسراع |

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

يارب خيرك يرجو من هيض منه الذراع  
لاتسلبني صبراً منه لقلبي ادراع

ولما سقطت غرناطة في يد الإسبان ، عبر الشريف العقيلي البحر إلى المغرب مع سلطانه المنفى أبي عبد الله محمد ، وكان من أزوع ما كتب رسالة الإعتذار ، التي كتبها على لسان السلطان أبي عبد الله إلى سلطان المغرب ، وعنوانها «الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» (١) . ومهد لها بعد الديباجة بقصيدته الرائعة التي مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيما لما مثله يرعى من الذم  
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

وقد سبق أن أتينا على ذكر هذه الرسالة المؤثرة الفريدة ، في موضعها ، وأوردنا طرفاً من قصيدة العقيلي ، ومن أقواله التي يخاطب بها السلطان أبو عبد الله سلطان فاس مستجيراً به ، ملتجئاً إلى حمايته ، معتذراً إليه عما بدر منه .

وعبر البحر إلى المغرب قبيل سقوط غرناطة وبعده جمهرة من العلماء والأدباء ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى (٢) . وقد آثروا مغادرة الوطن القديم على التعرض لفقد الحرية وامتهان الدين والكرامة القومية ، ومذلة العبودية في ظل الحكم الأجنبي المتعصب .

وكان سقوط غرناطة في يد اسبانيا النصرانية في سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) ، نذيراً بانهيار صرح الأمة الأندلسية القومية والاجتماعي ، وتبدد تراثها الفكرى والأدبى ، وكانت إسبانيا النصرانية ترى قبل كل شيء ، إلى القضاء على خواص الأمة المغلوبة الدينية والفكرية ، وعلى سائر الروابط الأدبية التي تربطها بماضيها المجيد ، وقد نجحت السياسة الإسبانية ، بدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق ، في تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد ، فلم يمض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً ،

(١) نشر المقرئ هذه الرسالة بأكملها في نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ؛ وفي أزهار

الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

حتى استحوالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، يستبدل دينه القديم - الإسلام -  
بالنصرانية المفروضة ، ويتكلم القشتالية ، وتغيب البقية الباقية من خصائصه القديمة ،  
شيئاً فشيئاً ، تحت ضغط التشريعات والإجراءات التعسفية المرهقة .

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الإستشهاد المحزن ، الذي فرض عليها ، تحاول  
بكل وسيلة أن تستبق ما وسعت ، من تراثها الفكري والروحي القديم ، فكان الموريسكيون  
بالرغم من دخولهم في النصرانية . يتعلقون سرّاً بدينهم القديم ، وكثير منهم يؤدون  
شعائر الإسلام خفية ، وديوان التحقيق من ورائهم يطاردهم بمنتهى القسوة حسبما  
فصلنا . وكانوا يحافظون جهدهم على لغتهم العربية . ولكن السياسة الإسبانية المرهقة ،  
فطنت منذ الساعة الأولى إلى أهمية اللغة في تدعيم الروح القومية ، فعولت على سحق  
العربية وكل آثارها ، وصدر منذ أيام الإمبراطور شارلكان في سنة ١٥٢٦ ، أول  
قانون لتحريم التخاطب بالعربية على الموريسكيين . ولكنه لم يطبق بشدة . وكانت  
العربية ماتزال حتى ذلك الوقت لغة لأدب يختصر ، وكان يوجد ثمة بين الموريسكيين  
من ينظم بها الشعر ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى القصيدة التي أرسلها الموريسكيون  
إلى السلطان بايزيد الثاني يلتمسون فيها النجدة والغوث ، وهي قصيدة تم بالرغم من  
رعايتها عن روح شعرية مؤثرة . واستمر الموريسكيون عصراً آخر يوجهون رسائلهم  
العربية إلى مسلمي المغرب . وكانت السياسة الإسبانية تضيق ذراعاً بالعربية ، وتزداد  
منها توجساً ، فعادت في عهد فيليب الثاني لتتخذ خطواتها الحاسمة في القضاء عليها .  
وصدر في سنة ١٥٦٦ قانون جديد صارم يحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية  
أو التعامل بها على نحو ما فصلنا ، وطبق القانون بمنتهى الشدة . وكانت العربية قد  
أخذت تغيب شيئاً فشيئاً في عمر العسف والاضطهاد ، فجاء القانون الجديد ضربة  
قاضية لمظهرها الباقية . وفي هذا الوقت بالذات نشهد نفثات العربية الأخيرة لدى  
الموريسكيين في بعض قصائدهم السرية الثورية . وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصيدة  
من هذا النوع كتبها من يدعى باسمه المسلم محمد بن داود في التحريض على الثورة  
الموريسكية الأخيرة في سنة ١٥٦٨

ولم يمض فترة قصيرة على تطبيق القانون الجديد بتحريم العربية نهائياً ، وفرض  
القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل على الموريسكيين ، حتى اختلفت المظاهر والآثار

الأخيرة للعربية . ومع ذلك فقد وجد الموريسكيون في القشتالية ذاتها متنفس تفكيرهم وأدبهم القديم ، فكانوا يكتبون العربية بحروف قشتالية ، ويكتبون سيرة نبيهم القديم سراً باللغة القشتالية ، وينظمون بها المدائح النبوية والأساطير الدينية الإسلامية ، في قصائد تختلط فيها الألفاظ العربية بالقشتالية . وتوجد إلى اليوم بقية من هذا الأدب الموريسكى ، الذى تبدو فيه الروح العربية ، بالرغم من لغته وأساليبه القشتالية .

وقد نوه غير واحد من الكتاب الإسبان ، بما كان عليه الأدب الموريسكى بالرغم من ضعفه وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم . ويعلق الدون برونات على اختفاء الموريسكيين واختفاء أدبهم بعبارات شعرية يقول فيها : « إن السياسة الإسبانية لم تكتف بنفى الموريسكيين وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب ، وبربرية ديوان التحقيق بل تعداه إلى إختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكى ، والأدب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا » .

ثم يقول : « إنه قد اختفى بطرد الموريسكيين ، الأدب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحي الذى كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والإلهام والحماسة ، التى كانت خواصهم ، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » .

ويعرف الأدب الموريسكى فى الإسبانية « بالألميا دو » Aljamiado . ويقول بعض النقاد ، إنه وإن لم تكن للأدب الموريسكى ثروة من الجمال ، أو قيمة أدبية ذات شأن ، فإن له قيمة تاريخية واجتماعية فى الكشف عن التقاليد والعادات . وقد ترك الموريسكيون أثرهم فى اللغة الإسبانية وفى الشعر الإشبانى ، وفى الأفكار الدينية وغيرها . وأبرز آثارهم الدينية هى الكتب التى حاولوا أن يعرضوا فيها تعاليم الإسلام ، وفيها تمزج المثل الإسلامية بالمثل النصرانية ، أو تصور فى صورتها ، وربما صور النبى العربى فى صور المسيح ، وجعل آثارهم الدينية تمتاز بهذا المزيج الغريب الذى أملتته ظروف العصر ، وروح المطاردة الدينية ، ورهبة ديوان التحقيق .

بيد أن الآثار الدينية التي خلفها الموريسكيون، تم في معظمها، عن بعضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها (١).

— ٣ —

وقد أبدت السياسة الإسبانية اهتماماً خاصاً بالقضاء على تراث الأندلس الفكرى، وبدأت بارتكاب جريمتها الشائنة في سنة ١٤٩٩م أعنى لأعوام قلائل من سقوط غرناطة، فجمعت الكتب العربية وأحرقت حسبما فصلنا من قبل (٢). ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء، وأودعت أيام فيليب الثانى فى قصر الإسكوريال الذى أنشأه هذا الملك على مقربة من مدريد، وحجبت عن كل باحث ومتطلع. وفى أوائل القرن السابع عشر، وقع حادث كان سبباً فى مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية. ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركباً مغربية لمولاي زيدان ملك مراکش، مشحونة بالتحف، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغيرها. وتقول الرواية الإسبانية إن هذا الحادث وقع فى عصر فيليب الثالث، والظاهر أنه وقع نحو سنة ١٦٢٠م، حينما اشتد اضطراب العلاقات بين إسبانيا والمملكة الشريفة (٣). وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى إسبانيا، وأودعت قصر الإسكوريال، إلى جانب بقية التراث الأندلسى، التى كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثانى. وكانت مجموعة مولاي زيدان المغربية تحتوى بلا ريب على عدد كبير من الكتب الأندلسية التى كثر استنساخها، واقتناؤها بالمغرب، بعد سقوط غرناطة.

ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا. ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية

(١) راجع كتاب *Los Moriscos Españoles y su Expulsun* مؤلفه D. Pascual Boronat.

الفصل الثالث عشر من ٢٨٤ و ٢٨٦ و ٢٨٩.

(٢) راجع من ٢٢٩ من هذا الكتاب.

(٣) راجع الاستقصاء لآخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ج ٣ من ١٢٨؛ وراجع كتابى

« تراجم إسلامية » فى ترجمة القرى من ٢٥٣.

الباقية من تراث الأندلس . ففي سنة ١٦٧١ شبت النار في الإسكوريال ، ولتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم يبق منه سوى ألفين . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ وباحت ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامي إلى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل وسيلة ممكنة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم ، تحملهم نزعة الدين والجنس يعرضون عن كل بحث وتنقيب في هذه المصادر النفيسة ، التي تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها في العصور الوسطى ، ويكتفون في كتابة هذه المرحلة الطويلة الباهرة من تاريخ بلادهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسبانية التي تفيض بالتحامل والتعصب . ولم تنق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر في تنظيم تراث الأندلس الفكري والتعريف به ، قبل أواسط القرن الثامن عشر ، فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرفية والغربية ، هو ميخائيل الغزيري اللبني . الذي يعرف في الغرب باسم كازيري Casiri وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ، ووضع فهرس جامع لها . وكان الغزيري بنشأته وثقافته الشرقية رحل المهمة ، فلبى دعوة الحكومة الإسبانية ، وعين في سنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ، وأنفق هنالك بضعة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحققها ، ثم بدأ بوضع فهرسه الجامع الذي عهد إليه بوضعه . وفي سنة ١٧٦٠ صدر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان *Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis* « المكتبة العربية الإسبانية في الإسكوريال » ؛ وصدره الغزيري بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هذه الآثار إلى عدة فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه ، ثم الفلسفة وما يتعلق بها ، ثم الأخلاق فالطب والتاريخ الطبيعي ، فالرياضة والهندسة والفلك ، فالفقه وعلوم الدين والقرآن ، وهي تشمل أكبر مجموعة . ثم الآثار النصرانية . وتبلغ محتويات هذا الجزء الأول من الفهرس ١٦٢٨ مجلداً . وفي سنة ١٧٧٠ ظهر الجزء الثاني من الفهرس ، محتوياً على كتب الجغرافيا والتاريخ ومنتهياً برقم ١٨٥١ . وهو جملة ما أثبتته الغزيري في فهرسه .

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعد ظهور معجم الغزيري ، هو التنقيب

في مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ اسبانيا المسلمة، وسياسة الحكومات الإسلامية، وخواص المجتمع الإسلامي، فعنى طائفة من الباحثين الإسبان في أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى، يبحث تاريخ العلوم والآداب العربية، فأخرج أندريس كتابه عن «أصول الأدب» وأخرج ماسدى مؤلفه عن «تاريخ الحضارة الإسبانية» (١). ثم جاء العلامة كوندى فوضع لأول مرة تاريخاً لاسبانيا المسلمة (٢)، يعتمد فيه على الروايات العربية. وظهر هذا المؤلف بين سنتي ١٨١٠ و ١٨١٢. وبالرغم من أن مؤلف كوندى يحتوى على كثير من الأخطاء التاريخية، فقد كان أول مجهود غربي من نوعه يعرض للغرب قضية العرب في اسبانيا من الناحية العربية، وفيه يقف الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية، وخواص النظم والسياسة الإسلامية. ويبدى كوندى في كثير من المواطن حماسية في الدفاع عن العرب؛ والإشادة بخلاصهم ومواقفهم وحضارتهم، ويصدر في بعض المواطن أشد أحكام على أمته وسياسة مواطنيه.

وأخذت المصادر العربية الأندلسية، تمثل من ذلك الحين في كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس. وكان العلامة المستشرق الهولندي رينهاردت دوزي أعظم ياحث غربي، توفر على دراسة التاريخ الأندلسي، ودراسة مصادره العربية والغربية، وكتابه القيم «تاريخ المسلمين في اسبانيا حتى فتح المرابطين» (٣)، من أنفس ما كتب في هذا الباب. وتوالت بعد ذلك جهود الباحثين الغربيين في دراسة تاريخ اسبانيا المسلمة وكتابه. وصدرت بعد كتاب دوزي خلال القرن الماضي في هذا الموضوع، عدة كتب قيمة، إسبانية وإنجليزية وفرنسية وغيرها، يمتاز الكثير منها بدقة البحث وروح الإنصاف.

وقام المستشرق الفرنسي هارتفج ديرنبور في أواخر القرن الماضي، بدراسة جديدة للمجموعة الأندلسية بالإسكوريال، ووضع لها فهرساً جديداً بالفرنسية عنوانه، المخطوطات العربية في الإسكوريال «Les Manuscrits Arabes de l'Escorial»

(١) Historia crítica de España y de la cultura española

(٢) Historia de la Dominación de los Arabos en España

(٣) Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides

نحنا فيه نحو الغزيرى فى ترتيبه وترقيمه ، وعشر على نحو مائة مخطوط أخرى لم يثبتها الغزيرى فى معجمه . بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الحديد سوى جزئين يشتملان على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة والأخلاق والسياسة . وأصدر الأستاذ لى بروفانسال بعد وفاة ديرنبور جزءاً ثالثاً من هذا الفهرس مشتملاً على كتب الدين والجغرافيا والتاريخ . ومازال هذا الفهرس الحديد لمجموعة الإسكورىال الأندلسية ، ينقصه استعراض كتب الطب والتاريخ الطبيعى والرياضة والفقه ، كما ينقصه ذكر الكتب التى غابت عن الغزيرى وعددها نحو مائة كتاب . وقد كان التنقيب فى تراث الآثار الأندلسية ، والتعريف بها على هذا النحو ، فتحاً عظيماً فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية الإسبانية من شذور مغرصة ، وكانت مئات من الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الإسكورىال تبديد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة الساطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ما وصلت إليه من الإزدهار والتقدم .

بقي أن نتحدث عن الفن فى الأندلس ، وسيكون حديثنا عن ذلك عاماً . ذلك أن الفن فى مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، لم يكن سوى المرحلة الأخيرة لسير الفن الأندلسى .

وقد نشأ الفن الإسلامى فى البداية نشأة متواضعة . ويزيد بالفن هنا معناه الدقيق الخالص . فالتصوير والنحت والنقش والزخرفة والموسيقى والغناء وما إليها ، مما ينعت فى عصرنا بالفنون الجميلة ، يقع تحت هذا المعنى . بيد أن هنالك معنى أوسع للفن . فقد يشمل فنون الهندسة والعمارة وما إليها ، ولا بأس من أن نعامله بهذا المعنى الأعم فى الوقت نفسه . وهذه النشأة المتواضعة للفن الإسلامى ترجع بالأخص إلى عوامل دينية . فقد نشأ الإسلام خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وقد كان النحت والتصوير والنقوش الرمزية ، وقت ظهور الإسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الإسلام يخاصمها ويطاردها . ولم يشأ الإسلام أن يفسخ

٢٤ أندلس

صدره لهذه المظاهر والرسوم كما فعلت النصرانية ، حيث اعتنقتها وشماتها برعايتها ، وازدانت بها كنائسها وهياكلها العظيمة منذ القرن الأول للميلاد . ثم غدت فيما بعد مثاراً للخلاف الطائفي ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثارَت حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية الشهيرة . بيد أن هذه الخصومة التي شهرها الإسلام في عصره الأول على التماثيل والصور ، رموز الوثنية ومظاهرها ، لم تلبث أن خفت وطأتها منذ القرن الثاني للهجرة . حينما قامت الإمبراطورية الإسلامية ، وأنشئت في أرجائها الهياكل الإسلامية العظيمة ، وبدأت الخلافة في عظمها الدنيوية ، وأخذت بقسطها من الترف والبهاء والبذخ . عندئذ عني الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم ، بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد على الاقتباس بادىء بدء من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية والبيزنطية بنوع خاص ، واقتبس عرب الأندلس أيضاً من تراث الفن القوطي . ولم يمض بعيد حتى امتزج الاقتباس بالابتكار ، وبدأ الفن الإسلامي في مظهره المستقلة . وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة ، سواء في بغداد أو قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء . وبرع العرب في صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة ، وانتهوا في الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة ، وازدهر الفن الإسلامي في المشرق والمغرب أيما ازدهار .

وبلغ الفن الإسلامي في الأندلس أوج ازدهاره في القرن الرابع الهجري . ويجب أن نلاحظ أن عرب الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور ، وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث ، بالتماثيل والصور والنقوش ، التي تمثل الحيوان والنبات والطيور . أما التماثيل والصور البشرية ، فكانت تلبى نوعاً من التحريم العام . وفي عصر عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ — ٥٣٥٠ ) خطا الفن الأندلسي خطوة أخرى ، فصنعت التماثيل والصور البشرية ، وزينت بها القصور والمعاهد الخلافية ، وكما أن عصر الناصر كان أعظم عصور الدولة الإسلامية في الأندلس ، فكذلك كان أعظم عصور الفن الأندلسي .

وقد كان قصر قرطبة الكبير حتى عهد الناصر ، موضع العناية والرعاية من جميع أمراء بني أمية ، وكان مجمع البهاء والرواء والفن . ولكن الناصر آثر أن ينشئ له ضاحية ملوكية جديدة ، تكون آية في الفخامة والبهاء ، فأنشأ مدينة الزهراء وقصورها

ومعاهدها الباهرة ، وأفاض عليها من ألوان البديع والبهاء ، وبدائع الفن والزخرف ، آيات رائعات . وكانت نقوش الزهراء ورسومها وتمائيلها ، أبدع ما أخرج الفن الإسلامي في الأندلس . ولا يتسع المقام للإفاضة في وصف عظمة الزهراء وروائعها الفنية ، فنحيل القارئ إلى ما أورده صاحب نفع الطيب في هذا الشأن من مختلف الروايات والفصول (١) . ولكننا نخص بالذكر هنا مثلين زائعين من آيات الفن الباهر ، التي زينت بها قصور الزهراء ، فمن ذلك أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك الأوائل ، مطلى بالذهب ، وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع ، قد أقيم على بحيرة قصر الناعورة ، يجوز الماء إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب ، من جبل قرطبة على حنايا معقودة ، فيدفع الماء إلى البحيرة في منظر رائع (٢) . ومن ذلك الحوض البديع الذي جلبه الناصر لاستحمامه ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة : أسد إلى جانبه غزال ثم تمساح ، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل ، وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، كلها من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ، وتخرج الماء من أفواهها (٣) . وهنا أيضاً أعنى في عصر الناصر ، نرى لأول مرة فيما يظهر ، تماثيل الإنسان وصوره تمثل في الفن الأندلسي ، إلى جانب تماثيل الحيوان وصوره . فيروى أن الناصر أمر أن تنقش صورة جاريته وحظيته « الزهراء » على باب قصر الزهراء ، وهذه الجارية فيما يروى هي التي حملته على بناء الزهراء وتسميتها باسمها (٤) . وزينت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية (٥) . فكانت ظاهرة فنية جديدة .

وبلغ الفن الأندلسي في عصر الناصر وابنه الحكيم المستنصر ، ذروة القوة والبهاء . وما زالت أسبانيا النصرانية تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر ، منها

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٦٤ — ٢٦٦ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛

وراجع Murphy : Mohamedan Empire in Spain, p. 167—174

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ و ٢٩٢ Murphy ; ibid, p 292

وعلى الزهراء الشهير . وهو تمثال وعمل من البرونز زين جسمه بالنقوش والزخارف العربية البديعة ، وتاج عمود من المرمر به زخارف دقيقة مذهشة ، وقد نقش عليه اسم الحكيم المستنصر بالله واسم حاجبه ، وكلاهما بمتحف قرطبة ؛ وصندوق من العاج البديع نقشت عليه صور فرسان وأسود آية في الدقة ، وذكر عليه اسم صاحبه وهو عبد الملك بن أبي عامر ولد الحاجب المنصور . ويحفظ بكنيسة بنبلونة الكبرى (١) . وقد برع الأندلسيون في الصناعات الفنية الدقيقة ، مثل صناعة الخلي الفائقة والتحف العاجية والجلادية ، ونافسوا فيها صناعة بيزنطية (٢) . وكانت القصور والمعاهد العامة والمساجد الجامعة ، معرضاً لأبداع ما تمخض عنه الفن الرفيع يومئذ من صنوف الزخارف والرسوم والتحف الفنية . ومن ذلك أنه كان بجامع قرطبة تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وقد زين بصور ونقوش رائعة ، يعجز عن وصفها القلم (٣) . وقد امتازت المدرسة المحافظة بالتفوق في نوع جديد من الزخارف ، يقوم على رسوم الشجر والأوراق والأغصان والأشكال المتماثلة المتكررة دون الصور التي تمثل الإنسان والحيوان ؛ ذلك لأنها كانت تقوم على احترام التقاليد الدينية القديمة . واشتهرت هذه المدرسة في العصور الوسطى ، وكان لها أثر عميق في تطور الفن الأوربي ، وما زالت تعرف بالتماذج العربية (الأرابيسك) (٤) .

وسطع الفن الأندلسي أيام الطوائف مدى حين ، ونشر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد في إشبيلية ، وبنو ذي النون في طليطلة حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء . وأغدقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه ، مما أفاض في وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء . وكان بنو عباد في إشبيلية أعظم حماة للفنون والآداب . وكان قصر المأمون بن ذي النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء ، وكان روشته الشهير الذي بنى وسط بحيرة القصر ، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية ، مستقي خصباً لخيال الشعراء ، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من ماثيل الاسود

Lévy - Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème Siècle pl. XXII, (١)  
XXIII, XXXIV.

Lévy-Provençal, ibid, p. 189 (٢)

(٣) نفع الطيب ٣ ص ٢٤٥ .

Murphy ; ibid, p. 291 - Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien ؛ (٤)

التي تقذف الماء من أفواهها ، وهي لاتزال تقذف الماء ولا تفتر ، وتبظم لآلى الحباب بعد ما نثر<sup>(١)</sup> . وكان للمقتدر بن هود ملك سرقسطة في قصره ، مجلس رائع زينت جدرانها بالنقوش والتحف الذهبية البديعة<sup>(٢)</sup> . ولم يكن هذا الهوى الفنى قاصراً على الأمراء والكبراء ، فقد روى لنا المقرئ أنه كان ببعض حمامات إشبيلية تمثال بديع الصنع ، قال فيه الشاعر :

ودمية مرمر تزهو بجيـد      تناهى في التورد والبياض  
لها ولد ولم تعرف حليلا      ولا أملت بأوجاع المحاض  
ونعلم أنها حجر ولكن      تميمنا بألحاظ مراض

وفي عهد المرابطين والموحدين خبت دولة الفن الإسلامي في الأندلس . ذلك لأن أولئك الغزاة البربر ، الذين كانوا يضطرمون بروح دينية محافظة ، لم يقدرُوا روعة الفن الرفيع وسحره ، ولم تفسح لهم الثورات والحروب الداخلية ، مجالاً لرعاية الفنون والآداب .

وازدهرت الفنون والآداب كرة أخرى في مملكة غرناطة . وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون . ونلاحظ أن الفن الأندلسي بلغ في هذا العصر ذروة التحرر والافتنان أيضاً ، وتوسع الفنانون المسلمون في تصميم المناظر والرسوم . ولم يقتصر الأمر على الصور والرسوم والتماثيل المفردة ، بل تعداه إلى المناظر المصورة ، وإلى المجموعات المنحوتة . وما زالت حمراء غرناطة ، وما زالت أبهاؤها ومجالسها الرائعة ، تنبئ عما انتهت إليه آخر دول الإسلام في الأندلس من البذخ والبهاء ، وعما بلغه الفن الأندلسي في هذه المرحلة الأخيرة من حياة الإسلام في اسبانيا ، من الدقة والافتنان . وسوف يبقى قصر الحمراء ، وما يحتويه من النقوش والزخارف والصور الرائعة ، رمزاً خالداً لعظمة الفن الإسلامي في الأندلس . وفي الحمراء : في قاعة الحكم ، وفي جهو الأسود ، وفي قاعة السفراء ، وفي غيرها من الأبهاء المنيفة ، زينت الجدران بمجموعات كاملة من المناظر المصورة ، ومن ذلك صور لمجلس الحكم ، وصور تمثل موقعة حريرية ، وكوكبة من الفرسان ، ومناظر فروسية وصيد وغيرها .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٧ و ٢٨٢ ؛ وفلائد العيان للفتح بن خاقان ص ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) نفع الطيب ج ١

نعرض بعد ذلك لتناحية أخرى من الفن الإسلامي في الأندلس هي الموسيقى . وقد كان للموسيقى بين فنون الحضارة الإسلامية أيما شأن ، وكان ازدهارها بالأخص في بغداد وقرطبة ، حيث بلغت حضارة الإسلام ذروة العظمة والنضج ، وكان ازدهارها في عصر مبكر جداً منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ؛ في ظل الدولة العباسية الفتية . وفي هذا الوقت نفسه انتقل إلى الأندلس قبس من هذه النهضة المشرقية ، فنزح زرياب الموسيقى غلام الموصليين<sup>(١)</sup> أساطين الموسيقى والغناء لهذا العهد ، إلى الأندلس في عصر عبد الرحمن بن عبد الحكم (أوائل القرن الثالث) ، فاستقبله بنفسه وبالغ في إكرامه ، وأغدق عليه العطف والبذل . وكان زرياب موسيقياً عظيماً ومغنياً ساحراً ، فذاع فنه في الأندلس والمغرب ، وأنشأ بالأندلس مدرسة موسيقية وغنائية باهرة ، استطال نشاطها وأثرها حتى عصر الطوائف ، وازدهرت أيام الطوائف في إشبيلية في ظل بني عباد بنوع خاص<sup>(٢)</sup> . وسطع في مملكة غرناطة قبس من هذه النهضة ، واشتهرت الموسيقى الأندلسية في غرب أوروبا في العصور الوسطى ، وكان لها أثرها في تطور الموسيقى الغربية . وبرع المسلمون في العزف على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم ، واخترعوا الكثير منها ولاسيما « القيثارة » التي كانوا يعتبرونها أجمل الآلات الموسيقية . وكان للموسيقى الأندلسية أثر كبير في تطور الموسيقى الإيطالية القديمة ، ولا زالت آثار من الأوضاع والتقاليد الموسيقية الأندلسية تمثل في الموسيقى الإسبانية الحديثة<sup>(٣)</sup> .

وقد كانت الأمة الأندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل ، وتحب الحياة الناعمة المترفة ، وتجنح إلى المرح والطرب . وقد وصف لنا ابن الخطيب لمحة من هذا الترف ، الذي كان عنواناً لحياة الأمة الأندلسية في عصورها الأخيرة ، وذكر لنا كيف كان الشعب يعشق الغناء والموسيقى ، وكيف كانت غرناطة تموج بالمقاهي الغنائية التي يؤمها الشعب من سائر الطبقات . وقد اشتهر الرقص الأندلسي بجماله وافتنانه في مجتمعات العصور الوسطى ، وما زال شعب غرناطة المرح الطروب مقبلاً خلال كفاحه الطويل ، على حياته المترفة الناعمة ، حتى أصبح العدو على الأبواب .

(١) إبراهيم الموصلي وولده اسحاق وولده حماد .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٧ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣) Murphy, ibid; p. 296, Aschbach, ibid, B. II. p. 353

وللأندلسيين آثار قيمة في الموسيقى العلمية والعملية . وفي مكتبة الإسكوريال مخطوط عربي نفيس عن الموسيقى وعناصرها ومبادئها وأوضاعها وأنغامها ، وكذلك عن الآلات الموسيقية المختلفة وأشكالها وتراكيبها (١) . وهو دليل على ما بلغه المسلمون في هذا الفن من الرسوخ والابتكار .

وقد يرى بعض الباحثين الغربيين أن الأندلسيين تلقوا معظم تراثهم الفني ، عن الفن النصراني . وفي هذا الرأي مبالغة ، فقد اقتبس الأندلسيون من فنون القوط والفرنج والبيزنطيين والبنادقة ، ولكنهم كانوا مبتكرين أيضاً ، وكانوا منشئين لفن إسلامي محض ، بما أسبغوه عليه من ألوان الافتنان الرائع التي اختصوا بها . وتميز بها تراثهم الفني مدى الأحقاب .

\* \* \*

وكما أبقى لنا الزمن على بقية من تراث الأندلس الفكري ، مازالت تحتفظ بها اسبانيا النصرانية ، فكذلك مازالت تقوم إلى يومنا في اسبانيا طائفة من الآثار الأندلسية الخالدة ، مثل جامع قرطبة الذي مازال رغم تحويله إلى كنيسة جامعة ، يعتبر من أعظم نماذج العمارة الإسلامية الإسبانية ، وقصر إشبيلية ، وجرأ غرناطة التي أتينا فيما تقدم على تاريخها ووصفها ، والتي مازالت أبراجها وأبوابها الملوكية الصامته ، تعرض لنا كثيراً من روعتها القديمة . وكذلك يوجد إلى اليوم في مختلف أنحاء الأندلس وقواعدها الناهبة ، كثير من الأطلال الأندلسية الدارسة ، من صروح وقناطر وغيرها . وكلها تشهد بما كان لهذا الشعب النبيل الذكي ، من قدم راسخ في ميدان العلوم والفنون ، وكلها تبدو بما يتجلى فيها من روعة أثرية ، ومن براعة علمية وفنية ، عنواناً لحضارة عظيمة .

(١) مجمع الفزيري (Casiri) ج ١ ص ٢٧٤ .

obeikandi.com

## ثبت المراجع

- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ( طبع القاهرة ) .  
أزهار الرياض في أخبار عياض للمقرى ( القاهرة ) .  
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر ( بولاق ) .  
الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ( القاهرة ) .  
اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب ( القاهرة ) .  
الحلل الموسوية في الأخبار المراكشية لابن الخطيب .  
أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر المنشور بعناية المستشرق مولر  
( جوتنجن سنة ١٨٦٣ ) .  
تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي المنشور بعناية الأستاذ ليفي  
بروفنسال ( القاهرة ) .  
قلائد العقيان للفتح بن خاقان .  
صلة الصلة لأبي جعفر بن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليفي بروفنسال  
تكملة الصلة لابن الأبار ( المكتبة الأندلسية ) .  
الحلة السيرة لابن الأبار المنشور بعناية العلامة دوزي ( ليدن سنة ١٨٥١ ) .  
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول ( الجزائر سنة ١٩٢٠ ) .  
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ( القاهرة ) .  
المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ( تونس ) .  
الحلاصة النقية في أمراء إفريقية لأبي عبد الله الباجي المسعودي ( تونس ) .  
السلوك في دول الملوك للمقرى ( القاهرة ) .  
صبح الأعشى للقلقشندي ( القاهرة ) .  
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ( بولاق ) .  
تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور ( بولاق ) .  
الروض المعطار لأبي عبد الله الحميري المنشور بعناية الأستاذ ليفي بروفنسال ( القاهرة ) .  
معجم البلدان لياقوت الحموي ( القاهرة ) .  
رحلة ابن بطوطة ( القاهرة ) .

\* \* \*

- R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides (Lévy-Provençal 1932).
- » : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.
- Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.  
( وهو ترجمة التسم التاريخي من كتاب نصح الطيب مع تعليقات وهوامش )
- Condé : Historia de la Dominaçion de los Arabos in Espana.
- W. Prescott : History of Ferdinand and Isabella the Catholic (London, Sonnenschein).
- » : History of the Reign of Philip the Second (London 1855).
- Scott : The Moorish Empire in Europe.
- H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain.
- » » : History of the Moriscos of Spain; their Conversion and Expulsion (London 1901).
- Don S. A. Llorente : Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne.
- Owen Jones & Jules Goury : The Alhambra (London 1844).
- W. Irving : A chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's)
- Lévy-Provençal : L'Espagne Musulman au Xème Siècle.
- Murphy : Mohamedan Empire in Spain.
- Lane-Poole : The Barbary Corsairs.
- » » : The Moors in Spain.
- Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.
- » : Geschichte Spanien's zur Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden.
- C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur.
- M. Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.
- Lafuente Alcantra : Historia di Granada.
- Boronat, Don P. : Los Moriscos Espanoles y su Expulsiun.
- Gomez-Moreno : El Arte en Espana.

## فهرست

صفحة

٣

مقدمة

### الكتاب الأول

مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى عصر السلطان أبي الحسن

- ١٠ ... .. الفصل الأول : الأندلس الغاربة
- ١٨ ... .. الفصل الثاني : نشأة مملكة غرناطة وقيام الدولة النصرانية
- ٤١ ... .. الفصل الثالث : طوائف الأمة الأندلسية في عصر الإنحلال
- ٥٠ ... .. الفصل الرابع : طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية
- ٦٠ ... .. الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة
- ٧٠ ... .. الفصل السادس : مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين
- ٩٠ ... .. الفصل السابع : مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى
- ١٠٤ ... .. الفصل الثامن : الأندلس بين المد والحزر
- ١٢٦ ... .. الفصل التاسع : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون

### الكتاب الثانى

نهاية دولة الإسلام فى الأندلس

- ١٤٤ ... .. الفصل الأول : الأندلس على شفا المنحدر

|      |                                    |
|------|------------------------------------|
| صفحة |                                    |
| ١٦٢  | الفصل الثاني : بداية النهاية ..... |
| ١٧٣  | الفصل الثالث : الصراع الأخير ..... |
| ١٩٧  | الفصل الرابع : ختام المأساة .....  |

### الكتاب الثالث

#### مأساة الموريسكيين أو العرب المنتصرين

|     |  |
|-----|--|
| ٢٢٤ | الفصل الأول : بدء التحول في حياة المغلوب .....                                 |
|     | الفصل الثاني : ديوان التحقيق الإسباني ومهمته في إبادة الأمة<br>الأندلسية ..... |
| ٢٣٦ | الفصل الثالث : ذروة الإضطهاد وثورة الموريسكيين .....                           |
| ٢٥٥ | الفصل الرابع : توجس السياسة الإسبانية وعصر الغارات البحرية<br>الإسلامية .....  |
| ٢٧٦ | الفصل الخامس : مأساة النفي .....   |
| ٢٨٨ | الفصل السادس : تأملات وتعليقات عن آثار المأساة .....                           |

### الكتاب الرابع

#### نظم الحكم

#### والحياة الإجتماعية والفكرية في مملكة غرناطة

|     |  |
|-----|--|
| ٣١٦ | الفصل الأول : نظم الحكم في مملكة غرناطة وخواصها الإجتماعية ..... |
| ٣٣٣ | الفصل الثاني : الحركة الفكرية في مراحلها الأولى .....            |
| ٣٤٩ | الفصل الثالث : عهد النضج والازدهار .....                         |
| ٣٦٧ | الفصل الرابع : العصر الأخير والآثار الباقية .....                |

## فهرست الخرائط والصور

| صفحة  |  |
|-------|--|
| ٢١    | ١ - خريطة اسبانيا في القرن الثالث عشر        |
| ٦٣    | ٢ - خريطة اسبانيا في القرن الرابع عشر        |
| ١٧٧   | ٣ - خريطة مواقع حرب غرناطة الأخيرة           |
| * * * |  |
| ١٤٠   | ١ - فرديناند الكاثوليكي ملك أراجون           |
| ١٤١   | ٢ - إيزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة         |
| ٢١١   | ٣ - من زخارف بهو المدخل الرئيسي بقصر الحمراء |
| ٢١٣   | ٤ - فناء البركة وبرج قمارش                   |
| ٢١٥   | ٥ - بهو الأسود أو كورة السباع                |
| ٢١٥   | ٦ - البهو الرئيسي بقصر جنة العريف            |
| ٢١٧   | ٧ - بهو بنى سراج                             |
| ٢٥٨   | ٨ - الإمبراطور شارلكان                       |
| ٢٦٣   | ٩ - الملك فيليب الثاني                       |
| ٢٩٣   | ١٠ - الملك فيليب الثالث                      |

## فهرس أجدى للأعلام

- (١)
- أبنة ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٤ و ٦٦ و ٧٦  
ابراهيم بن سهل الاشبيلى ؛ ١٢ و ٣٢  
و ٣٣٥  
ابن أبى أصيبعة ؛ ٣٤٠  
ابن الأبار ؛ ٢٦ و ٦٩ و ٣٣٤ و ٣٣٦  
و ٣٣٧ و ٣٣٩  
ابن الأزرق ، الاشبيهى ؛ ٣٦٩  
ابن البيطار ؛ ٣٣٤ و ٣٤٠  
ابن الجياب ؛ ٩٦ و ٣٢٣ و ٣٤٢ و ٣٤٥  
ابن الجيان المرسى ؛ ٣٣٦  
ابن الحكيم ؛ ٨٥ و ٨٧ و ٣٢٣ و ٣٤٢  
و ٣٤٤  
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ١٥ و ١٦  
و ٤٨ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٥  
و ١٠٦ - ١١٢ و ١٣١ و ١٤٥  
و ٣٢٣ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٤٢  
و ٣٤٣ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥١  
- ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٤ و ٣٦٥  
و ٣٦٦  
ابن الزبير ، أبو جعفر ؛ ٣١٧  
ابن الشط ؛ ٣٤٢  
ابن الطفيل ؛ ٣١٩  
ابن الفخار ؛ ٣٤٧  
ابن الفرضى ؛ ٣٢٠  
ابن اياس ؛ ٦٥ و ١٦٦  
ابن باجه ؛ ٣١٨  
ابن بدرون ؛ ٣٢٠  
ابن بسام ؛ ٣١٨  
ابن بشكوال ؛ ٣٢٠  
ابن بطوطة ؛ ١٠٠ و ١٠١ و ٣٥٠  
ابن ثومرت ، المهدي ؛ ٢٠ و ٣١٨
- ابن جابر الضرير ؛ ٣٤٦  
ابن جزى ، أبو القاسم ؛ ٣٤٧  
ابن جزى ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٠  
ابن حبيب الاشبيلى ؛ ٣٢٠  
ابن حريق ؛ ٣٣٤  
ابن حزم ؛ ٣١٧  
ابن حفصون ؛ ٤٧ و ٤٨  
ابن حمدون الحميرى ؛ ٣٣٤  
ابن حيان ؛ ١١ و ٣١٧  
ابن خاتمة ؛ ٣٤٤ و ٣٥١  
ابن خلدون ؛ ٨١ و ٩١ و ١٠٥ و ١٠٧  
و ١٠٨ و ١٣١ و ١٤٦ و ٣٥٤  
ابن خميس ؛ ٣٤٤  
ابن دينار ؛ ٢٩٨  
ابن رشد ؛ ٤٧ و ٣١٩ و ٣٢٠  
ابن زمرك ؛ ١١٢ و ١١٤ و ٣٤٢  
و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٤  
ابن زهر ، عبد الملك ؛ ٣١٩ و ٣٤٠  
ابن زيدون ؛ ٣١٧  
ابن سعيد الاندلسى ؛ ٣٣٤ و ٣٣٩  
ابن سلبطور ؛ ٣٥٠  
ابن عبدون ؛ ٣١٧  
ابن عبو ، مولاي عبدالله ؛ ٢٧٠ و ٢٧١  
و ٢٧٣ - ٢٧٥  
ابن عربى ، محبى الدين ؛ ٣٣٤ و ٣٣٩  
ابن فرحون القرشى ؛ ٣٤٧  
ابن فرحون ، برهان الدين ؛ ٣٦٥  
ابن قزمان ؛ ٣١٨  
ابن لب ؛ ٣٦٣ و ٣٦٤  
ابن ليون ؛ ٣٤٨  
ابن مرج الكحل ؛ ٣٥٠  
ابن مردنيش ؛ ٤٨ و ٥٦ و ٥٧ و ١٥١  
و ٣٣٠ و ٣٣٧

ابن المهنا ؛ ٣٦٦  
ابن هود ؛ ٢٠ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٧ و ٣٠ -  
و ٣٣٣  
أبو البقاء الرندي ؛ ٣٦ و ٣٧ و ٣٨  
و ٣٣٧  
أبو الحسن الباهلي ؛ ٣٦٨  
أبو الحسن البسطي ؛ ٣٧٠  
أبو الحسن القراري ؛ ٣٤٧  
أبو الحسن المريني ، السلطان ؛ ٩٤-٩٨  
و ١٠٠ و ١٠٢ و ١٣٠  
أبو الحسن النباهي ؛ ٣٥٦ و ٣٦٥  
أبو الحسن النصري ، السلطان ؛ ١٤٧  
و ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥٤ و ١٥٦  
و ٢٠٥  
أبو العباس بن الرومية ؛ ٣٤٠  
أبو القاسم الحسيني ؛ ٣٥٠  
أبو القاسم بن سلمون ؛ ٣٦٥  
أبو القاسم عبد الملك ؛ ١٨٣ و ١٨٤  
و ١٨٥  
أبو القاسم العزفي ؛ ٣٦ و ٨٦  
أبو النعيم رضوان ؛ ٩٣ و ٩٥ و ٩٦  
و ١٠٥ و ١٠٦ و ٣٢٣ و ٣٥٢  
أبو الوليد اسماعيل ، السلطان ؛ ٨٩  
و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٢١٠  
أبو الوليد اسماعيل ، الأمير ؛ ٣٤٢  
و ٣٥٤ و ٣٦٤  
أبو بكر الطرطوشي ؛ ٣١٨  
أبو بكر بن عاصم ؛ ٣٦٧  
أبو بكر بن عبد الملك بن زهر ؛ ٣٤٠  
أبو ثابت المريني ؛ ٨٦ و ٨٧  
أبو جعفر العذري ؛ ٣٦٠  
أبو جميل زيان ، راجع زيان  
أبو حيان الغرناطي ؛ ٣٤٥  
أبو زكريا الأشبيلي ؛ ٣٢٦  
أبو زكريا الحفصي ؛ ٢٦ و ٢٨ و ٦٩  
و ٣٣٦

أبو سالم المريني ؛ ٨٦ و ١٠٦ و ١٠٧  
و ١٤٥ و ٣٥٣ و ٣٦١  
أبو سعيد المريني ؛ ٩١ و ٩٤ و ١١٦  
أبو عبد الله الشيخ الوطاسي ؛ ١٩٩  
أبو عبد الله محمد ، السلطان ؛ ١٤٩  
- ١٥١ و ١٥٥ - ١٥٨ و ١٦١  
و ١٦٢ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٧١  
و ١٧٢ و ١٧٤ - ١٧٦ و ١٨١  
و ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٧ و ١٨٩  
و ١٩١ - ١٩٣ و ١٩٩ و ٢٠٢  
- ٢٠٧ و ٢٢٥ و ٣٣٠ و ٣٧٠  
أبو عنان ، السلطان ؛ ١٠٥ و ١٠٦  
و ٣٥٠ و ٣٥٢  
أبو فارس الحفصي ؛ ١١٨ و ١١٩  
أبو مالك ؛ ٩٤ و ٩٦  
أبو يحيى بن عاصم ؛ ٣٦٨  
أبو يعقوب ، السلطان ؛ ٨٢ و ٨٣-٨٦  
أبو يوسف ، المنصور ؛ ٥٧ و ٧٢-٧٦  
و ٨٠ - ٨٣ و ١٢٧  
أبو يوسف يعقوب ؛ ٣٤ و ٣٨ و ٧٢  
و ٧٧ و ٣١٩  
أحمد الوطاسي ، السلطان ؛ ٢٠٧  
أراجون ( الثغر الأعلى ) ؛ ١١ و ٤٣  
و ٤٧ و ٥٤ و ٦٠ - ٦٢ و ٦٥  
و ٦٨ و ١١٥ و ١٢١ و ١٣٠  
و ١٣٧ و ١٢٨  
أرجونة ؛ ٢٧ و ٢٨ و ٣١ و ٦٧  
أردونو ؛ ٥٣ و ٥٦  
أرشدونة ؛ ١٩٠ و ١٢٠  
أريولة ؛ ١٣٤ و ٣٠ و ٣٣٦  
اسبانيا ؛ ٤٥ و ٥٠ - ٥٥ و ٥٨ - ٦٢  
و ٩٦ و ٩٩ و ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٦  
- ١٤٩ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٩١  
و ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٥  
و ٣٠٧ و ٣١٤  
اسبينوسا ؛ ٢٦٤

- أستجة ؟ ١٣٤ و ٣٥ و ٧٦  
اسماعيل ، السلطان ؟ ١٠٦ و ١٠٨  
اشبيلية ؟ ١٣ و ١٤ و ٢٠ و ٢٩ و ٣٢  
و ٣٣ و ٤٢ و ٤٧ و ٦٦ و ٦٧  
و ٧٧ و ٧٨ و ١٠٠ و ١٠٨ و ١٢٨  
و ١٤٨ و ٢٤١ و ٢٤٩ و ٣٢٠  
و ٣٢١  
الأرك ؟ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢  
الأسبنتارية ؟ ٥٤ و ٥٥  
الاسكندرية ؟ ١١٢ و ٣٢٨  
الاسكوريال ؟ ٣٤٦ و ٣٥٩ و ٣٦٥  
و ٣٦٧ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦  
و ٣٧٧ و ٣٨٣  
الأشرف شعبان ؟ ١١٢  
الأشرف قايتباي ؟ ١٦٣ و ١٦٦ و ١٦٧  
و ٣٦٩  
الأيسر ، السلطان ١١٧ - ١٢١  
و ١٤٩  
البدول ؟ ١٧٥ و ١٩٣  
البرتية ، جبال ؟ ٥٧ و ٦٠ و ٦١  
و ١٠٦ و ٣١٣  
البشرات ؟ ١٧٥ و ١٧٩ و ١٨٣ و ٢٠٢  
و ٢٦٥ و ٢٦٨ و ٢٦٩  
البلوى ؟ ٣٤٨  
البنديقية ؟ ٢٨١ و ٣٢٨  
البيازين ، ربض ؟ ١٦ و ٩٦ و ١٥٧  
و ١٦٠ و ١٦١ و ٢٦٥ و ٢٦٧  
و ٣٦١  
البيرة ؟ ١٤ و ٤٢ و ٥٣ و ٦٨ و ٩١  
و ٩٢ و ١٠٩  
الجزائر الشرقية ؟ ٦٨ و ١٣٦ و ٢٨٤  
الجزيرة الخضراء ؟ ٧٥ و ٧٧ و ٨١ و ٨٤  
و ٨٨ و ٨٩ و ٩١ و ٩٤ و ٩٧  
و ٩٩ و ١٣٠ و ١٥٩ و ٣٢٥  
الحاجب المنصور ؟ ٥٣  
الحامه ٤١ و ١٥٣ و ١٦٢
- الحكم بن هشام ؟ ٤٧  
الحكم المنتصر ؟ ٣١٧ و ٣٧٩  
الحمراء ، قصر ؟ ١٦ و ٣٩ و ١٠١  
و ١٠٢ و ١٠٦ و ١١٢ و ١١٣  
و ١٢١ و ١٥٢ و ١٥٥ و ١٧٤  
و ١٨٢ و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩١  
و ٢٠٨ - ٢٢٠ و ٢٦٥ و ٣٢٢  
و ٣٢٥ و ٣٦٢ و ٣٨١ و ٣٨٣  
الحميدى ؟ ٣١٧  
الداوية ؟ ٥٤ و ٥٥  
الزغل ، أبو عبد الله محمد ؟ ١٤٧  
و ١٤٨ و ١٥٤ - ١٥٨ و ١٦١  
- ١٦٣ و ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٤  
و ١٧٦ و ١٩٩ و ٢٠٥  
الزلاقة ؟ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢ و ٧٦  
و ١٠٢  
الزهراء ؟ ٣٧٩ و ٣٨٠  
السيد أبو عبد الله ؟ ٣٢ و ٦٧  
السيد الكميادور ؟ ٥٦  
الشريف العقيلي ، محمد بن عبد الله ؟  
٢٠٠ و ٣٤٢ و ٣٧٠ و ٣٧١  
الشيخ ، أبو عبد الله ؟ ١٩٩  
الشيخ ، المأمون ؟ ٢٨٧  
الصالح ، الملك ؟ ٩٨  
الصخرة ؟ ١١٥ و ١٤٨  
العقاب ؟ ١٢ و ٥١ و ٥٧ و ٦٢ و ٧٢  
و ٧٦ و ٩٧  
الغزالي ؟ ٣١٨  
الغزيري ؟ ٣٧٥ و ٣٧٧  
الفتح بن خاقان ؟ ٣١٧ و ٣١٨  
الفرنثيره ؟ ٣١ و ٥٧ و ٧٦  
الفونسو الأول (المحارب) ؟ ٤٦ و ٥٤  
و ٦١  
الفونسو العاشر ، الحكيم ؟ ٣٠ و ٣١  
و ٣٥ و ٤٢ و ٥٧ و ٧١ و ٨٠  
و ٨١ و ١٢٧ و ١٥٩

و ١٦٧ و ١٧٠ و ١٩٨ و ٢٠٥  
 و ٢٦٧ و ٢٨٢ و ٢٩٥ و ٣١٣  
 و ٣١٧ و ٣٢٦ و ٣٢٩  
 انفاط : ١٥٤ و ١٥٨ و ١٥٩  
 انوسان الربع ( البايا ) : ٤٣ و ٤٤  
 و ٤٥  
 اوتودافى : ٢٤٦ و ٢٧٧  
 اوروج : ٢٨٣  
 ايدين ريس : ٢٨٤  
 ايزابيللا ، الكاثوليكية : ٥٨ و ٥٩ و ١٣٣  
 و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٤٢ — ١٤٨  
 و ١٦٤ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧٣  
 و ١٧٤ و ١٨٠ و ١٩٣ و ١٩٧  
 و ٢٢٦ و ٢٣٣ و ٢٣٩ و ٢٤٠  
 و ٢٦٠ و ٣١٢

(ب)

باديس المظفر : ١٩ و ٢٠٩  
 بايزيد الثانى : ١٦٦ و ٢٥٢ و ٢٥٣  
 و ٣٧٢  
 بحر الزقاق : ٨٣ و ٨٤ و ٩٤ و ٩٧  
 و ٩٨  
 البرتغال : ٦١ و ١٣٢  
 برشلونه : ٥٤ و ٣١٣  
 البربر : ١٤ و ١٩ و ٤١ و ٤٧ و ٤٨  
 و ٥٣ و ٣٢٤  
 برونات ( الدون ) : ٣٧٣  
 بسطة : ٤١ و ١٢٠ و ١٦٨ و ١٧٠  
 و ١٧١ و ١٧٤  
 بطرنا : ٣١ و ١١٢  
 بطليوس : ١٣ و ٢٣  
 بكتوستى : ٣١٠  
 بلانش دي بوربون : ١٠٨ و ١٣١  
 بلد الوليد : ١٣٣ و ١٣٩ و ٢٤١  
 بلش مالقة : ٨٩ و ١٠٠ و ١٥٥  
 و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٧

الفونسو الحادى عشر : ٩١ و ٩٤  
 و ٩٦ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣٢  
 الفونسو الثالث ، ملك اراجون : ١٣٣  
 و ١٣٥  
 الفونسو الرابع : ١٣٥  
 الفونسو الخامس : ١٣٧  
 الفونسو السادس : ٥١ و ٥٦  
 الفونسو ريمونديز : ٥٥ و ٥٧ و ٦٢  
 الفونسو هنريكز : ٦٢  
 الفونسو ملك البرتغال : ١٣٩ و ١٤٠  
 القادر بن ذى النون : ٥٦  
 القاهرة : ٩٨ و ١٦٥ و ١٦٩ و ٣٦٩  
 اللسانه : ١٥٥  
 البامون بن ذى النون : ٥٦ و ٢٨٠  
 المدجنون : راجع حرف م  
 المرج ، ( لافييجا ) : ١٥ و ٤٦ و ١١٣  
 و ١٢٠ و ١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٢  
 ٣٢٧ و ٣٢٨  
 المرية : ٢٤ و ٢٨ و ٤١ و ٤٤ و ٨٨  
 و ٨٩ و ٩٣ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٧٠  
 و ١٧٤ و ١٧٦ و ١٩٩  
 و ٢٨٣ و ٣٢١  
 المقرى : راجع حرف م  
 المنكب : ٧٩ و ٨١ و ٨٧ و ١٥٦  
 و ١٧٠ و ١٧٦  
 الناصر ، سلطان مصر : ٩٨  
 النوادى آشى ، أبو عبد الله الحداد :  
 ٣٧٠ و ٣٦٩  
 الينورادى كزمان : ١٣٠ و ١٣١  
 انتكيره : ٤١ و ١١٦  
 اندرش : ١٧٦ و ١٨٦ و ١٩٩  
 اندريس : ٣٧٦  
 أندلس : ١٠ و ١١-١٣ و ٣٠ و ٣١  
 و ٣٦ و ٤١ و ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ —  
 ٥٤ و ٥٧ و ٦١ و ٧٣ و ٨١  
 ٩٩-١٠٣ و ١٠٥ و ١٤٥ و ١٦٥

تركويمادا ؛ ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١  
تركيا ؛ ٤٥ و ١٦٦  
تطاون ؛ ٨٧ و ٢٨٧  
تلمسان ؛ ٧٣ و ٧٥ و ٨٥ و ٨٦ و ١١٥  
و ٢٩٨ و ٣٦٩ و ٣٧٠  
تونس ؛ ١٢ و ٢٦ و ٢٨ و ٢٩ و ٩٥  
و ١١٥ و ١١٨ و ٢٨٥ و ٢٩٩  
ثريا الرومية ؛ ١٥٠ و ١٥١ و ٢٢٠  
ثويداد ريال ؛ ٣٠٥  
جايم الاول ؛ ملك اراجون ؛ ٢٥ و ٤٣  
و ٦٨ و ٦٩ و ١٣٤ و ١٣٦  
جايم الثاني ؛ ٨٨ و ١٣٥  
جارسيا راميرز ؛ ٦١  
جان بلاط ، السلطان ؛ ٢٣٣  
جبل طارق ؛ ٥٧ و ٨٨ و ٩٤ و ٩٦  
و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠٦ و ١١٦  
و ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٩ و ١٣٠  
و ٢٨٣ و ٢٢٥  
جنة العريف ؛ ١٠٦ و ٢١٤ و ٢٣٠  
جنوة ؛ ٢٨١ و ٢٨٢ و ٣٢٨  
جنرالقو دي كردوفا ؛ ١٨٥  
جويريرو ؛ ٢٧٧  
جيان ؛ ١٣ و ٢٨ و ٣١ و ٦٦ و ١١٣  
و ١٢٢ و ١٧٠  
حامد الثغرى ؛ ١٥٧ و ١٦٣  
حبوس بن ماكسن ؛ ١٩  
حداره ، نهر ؛ ١٥ و ٢٠٩ و ٢١٠  
خوان ، الدون ؛ ٢٧٢ و ٢٧٣  
خير الدين ، بارباروس ؛ ٢٨٣ و ٢٨٤  
( د — ز )  
دانية ؛ ١٣ و ٢٥ و ٢٨٤ و ٢٩٤  
و ٣٢١  
دوزى ، المستشرق ؛ ٥٦ و ٣٧٦  
ديرنبور ، المستشرق ؛ ٤٤ و ٣٧٦  
ديزا ؛ ٢٢٨ و ٢٤١  
ديوان التحقيق ؛ ٥٩ و ٢٢٥ و ٢٢٨  
و ٢٣٢ و ٢٣٣ — ٢٥٢ و ٣٧١  
و ٣٧٣

بلنسية ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٥ و ٢٦ و ٤٣  
و ٤٧ و ٥٦ و ٦٩ و ٢٦٤ و ٢٨٠  
و ٢٨١ و ٢٨٥ و ٢٨٧ و ٢٩٠  
و ٢٩٤ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٦٠  
بليدا ؛ ٣٠٧  
بنو اشقيلولة ؛ ٢٩ و ٣٨ و ٧٤ و ٧٥  
و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٣  
بنو الأحمر ؛ ١٥٧ و ٢٠٥ و ٣٢٢  
و ٣٢٣ و ٣٣٠ و ٣٤١  
بنو الثغرى ؛ ١٢٤ و ١٨٢ و ٢٢٩  
بنو العلاء ، شيوخ الغزاة ؛ ٨٢ و ٨٦  
و ٩١ و ٩٢ و ٩٤ و ٣٦ و ٣٢٣  
و ٣٢٤  
بنو سراج ؛ ١١٧ و ١١٨ و ١٢٤  
و ١٥٢ و ٢٢٦  
بنو عامر ؛ الموريسيكون ؛ ٢٧٨  
و ٢٧٩  
بنو مرين ؛ ٣٤ و ٤٨ و ٧١ و ٧٣  
و ٨٠ و ١٠٢ و ١٢٣ و ١٤٦  
و ٣٢٣  
بنو نصر ؛ ٢٧ و ٤٠ و ٩٥ و ١٠٢  
و ١٥٠ و ٣٢٢  
بنو وطاس ؛ ١٢٢ و ١٩٩ و ٢٠٦  
و ٢٠٧  
بياسة ؛ ١٣ و ٢٨ و ٦٦ و ٩٢ و ١٥٩  
بيدرو الاول ، ملك اراجون ؛ ٦٥  
بيدرو الثاني ، ملك اراجون ؛ ٦٨  
بيدرو الثاني ملك قشتاله ( دون  
بطره ) ؛ ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩  
و ١١٢ و ١٣١ و ١٣٦  
بيدرو الثالث ملك قشتاله ( القاسى ) ؛  
١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١٣١  
بيدرو الثالث ملك اراجون ؛ ١٣٤  
بيدرو الرابع ملك اراجون ؛ ٣٥ و ١٣٦  
بيدرو ، الدون ؛ ٩١ و ٩٢ و ١٢٩  
( ت — خ )  
تاشقين بن يعقوب ؛ ٨٧

شارلكان ( شارل الخامس ) ؛ ١٧  
و ٢٠٩ و ٢١٤ و ٢٤٨ و ٢٥٦  
٢٦٠ و ٢٦٢ و ٣٧٢

شارلمان ؛ ٥٣

شاطبة ؛ ١٣ و ٢٥

شانت ياقب ؛ ٦٠

شريس ؛ ١٤ و ٢٣ و ٢٨ و ٣٣ و ٣٦  
و ٨٢ و ٨٣

شفارتز ، برتولد ؛ ١٦٠

شلوبانية ؛ ٧٩ و ١١٤ و ١١٥

شنتفي ؛ ١٨٠

شنتمرية ؛ ٣٣

شنيل ؛ ١٥ و ١٥٥ و ١٧٩ و ١٩٢  
شوقى ، أحمد ؛ ١٩٢ و ٢٢٠

(ص - ط)

صالح ريس ؛ ٢٨٤

صلاح الدين ، السلطان ؛ ٥٣ و ٣١٩

صقلية ؛ ١٣٤ و ١٣٦ و ١٦٦ و ٢٩١

طارق بن زياد ؛ ١٤ و ٣١٤

طرغود ؛ ٢٨٤

طليطلة ؛ ١١ و ٤٤ و ٥٠ و ٨١

طنجه ؛ ٨٤ و ٨٦

الطوائف ؛ ١١ و ١٢ و ١٩ و ٨٢  
و ٣٤١

(ع . غ)

عائشة الحرة ؛ ١٤٩ و ١٥٠ - ١٥٣

و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٦٠ و ١٩٢

و ١٩٧

عبد الحق بن خالد ؛ ٧٢ و ٩٣

عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٤٦ و ٣٨٢

عبد الرحمن الناصر ؛ ٥٣ و ٥٦

و ١٥١ و ٣١٤ و ٣١٧ و ٣٧٨

و ٣٧٩

عبد العزيز المريني ؛ ٣٥٦ و ٣٥٧

عبد المؤمن ، خليفة الموحدين ؛ ٢١٨  
و ٣١٩

دى آجلار ؛ ٢٣٤

دى ليرما ، الدوق ؛ ٢٨٩

دى هيتا ، ٢٢٠

واميرو ، ملك نافار ؛ ٦١

ربيرا ، المطران ؛ ٢٨٩ و ٢٩٠

رندة ؛ ٤١ و ٤٧ و ٧٥ و ٨٤ و ٨٩

و ١٠٠ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٥٧

رومة ؛ ١٩٧ و ٣٢٨

ريموند برنچار ؛ ٥٤

زاوى بن زيرى ؛ ١٩

الزغل ؛ راجع ال

الزلاقة ؛ راجع ال

زناته ، قبيلة ؛ ٤٨ و ٧١

زيان ، أبو جميل ؛ ٢٤ و ٢٥ و ٢٦  
و ٦٨ و ٣٣٦

زرياب ؛ ٣٨٢

زيدان ، السلطان ؛ ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٣٧٤

(س . ش)

سالادو ؛ ٩٧ و ١٣٠

سانشو الثانى ، ملك قشتالة ؛ ٥٦

سانشو المتوحش ؛ ١٢٨

سانشو الكبير ؛ ٦٠

سانشو السابع ملك نافار ؛ ٦٥

سيانشو ابن الفونسو العاشر ؛ ٨٠  
و ٨١ و ٨٢ و ٨٣

سبته ؛ ٣٦ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ١٠٢  
و ١١٠

سرقسطة ؛ ١٣ و ٥١ و ٢٩٠

سعد بن اسماعيل ، السلطان ؛  
١٢١ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٣٤

١٤٧ و ٣٣١

السفرديم ؛ ٤٨

سكوت ؛ ٣٩ و ٤٠ و ٣١٢

سلا ؛ ٢٨١ و ٢٩٨ و ٣٥٤

سليم الأول ؛ ٢٨٤

سيرفانتس ؛ ٢٧٩ و ٢٨٥

سيير انقادا ( جبل شلير ) ؛ ١٥ و ٤١  
و ١٨٠ و ١٨٢ و ٢٦٧

فرديناند ملك نابيل ؛ ١٦٨ و ١٦٩  
فرديناند صاحب انتكيرة ؛ ١١٦ و ١٣٦  
و ١٣٧

فرديناند الخامس ( الكاثوليكي ) ؛ ٥٨  
و ٥٩ و ١٣٤ و ١٣٨ - ١٤٢  
و ١٤٨ و ١٥٣ - ١٥٨ و ١٦١  
و ١٦٤ و ١٦٦ و ١٦٨ - ١٧١  
و ١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٩  
و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٧ - ١٩٩  
و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٣٢ و ٢٣٤  
و ٢٤٠ و ٢٤٦ و ٢٤٨ و ٢٦٠  
و ٢٦١

فرديناند دى فالور ( محمد بن أمية ) ؛  
٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٧٠  
و ٢٧١

فيليب الثانى ؛ ٢٦٠ و ٢٦٢  
و ٢٦٤ و ٢٧٠ و ٢٧٤ و ٢٨٨  
و ٢٨٩ و ٢٧٢ و ٢٧٤

فيليب الثالث ؛ ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٨٩  
و ٣١٠ و ٣٧٤

قادس ؛ ٣٣ و ١٢٧

قرطاجنة ؛ ١٣ و ٣٠

قرطبة ؛ ١٣ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٦ و ٤٤  
و ٤٧ و ٦٦ و ٦٧ و ١١٩ و ٣٢٠  
و ٣٢١

قرمونة ؛ ٢٨ و ٣١ و ٨٢

قسطنطينية ؛ ١٢٤ و ١٦٤ و ١٦٥  
و ١٦٦ و ١٩٧ و ٢٥٣ و ٢٥٥  
و ٢٨٢ و ٣١٧ و ٣٢٨

قشتالة ؛ ٢٠ و ٢٥ و ٣١ و ٤٣ و ٤٤  
و ٥٠ و ٥٣ و ٦١ و ٦٢ و ٦٥  
و ٦٦ و ٨٠ و ٨١ و ٩٢ و ١٠٩  
و ١١٤ و ١٢١ و ١٣٠ و ١٦٨

قطلونية ؛ ٦١ و ١٣٤

قمارش ؛ ٨٣ و ١٥٣ و ٢١٢ و ٢١٣

القمامة ؛ ١٦٦ و ١٦٧

كارلوس ، أمير فيانا ؛ ١٣٧

عثمان بن أبى الغلاء ؛ ٨٦ و ٨٨  
و ٩١ و ٩٣ و ٩٥

عثمان داي ؛ ٢٨٥ و ٢٩٨

العرب المنتصرون ؛ راجع الموريسكيون  
على بن أحمد الفسانى ؛ ٣٣٨

على العطار ؛ ١٥٤

على بن ناشفين ؛ ٤٧

على بن محمد بن خروف ؛ ٣٣٨

عمر بن الأفتس ؛ ٣١٧

عمر باي ؛ ٢٨٥

عمر بن عبد المجيد الأزدي ؛ ٣٣٨

عيسى بن سليمان الرعينى ؛ ٣٣٨

غرناطة ؛ ١١ و ١٣ و ١٤ و ١٦ - ١٩

و ٢٣ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٠ و ٤١

و ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ و ٤٨ و ٥٧

و ٨٠ و ٨٥ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٢

و ٩٣ و ١٠٦ و ١١٢ و ١١٤

و ١١٦ و ١١٨ و ١٢١ و ١٢٥

و ١٤٦ و ١٥٢ و ١٥٤ و ١٥٩ -

١٦١ و ١٦٧ و ١٧٣ - ١٧٥ و ١٧٩

- ١٨٣ و ١٨٦ و ١٩٠ و ١٩٧

و ١٩٨ و ٢٠٣ و ٢٢٥ و ٢٢٨ -

٢٣١ و ٢٦٤ و ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٨٢

و ٢٨٥ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٤

و ٣٢٦ - ٣٢٨ و ٣٤٣ و ٣٦٨

و ٣٧٠ و ٣٧١

غمارة ؛ ١٥٧ و ١٦٣

( ف . ق . ك )

فاس ؛ ٧٢ و ٧٣ و ٧٥ و ٨٢ و ٨٧

و ٨٨ و ٩٤ و ١٥٣ و ٢٠٢ و ٢٠٦

و ٢٣٤ و ٢٣٩ و ٢٩٨

فرج بن اسماعيل ؛ ٨٤ و ٨٥ و ٨٩

فرديناند الثالث ؛ ٢٣ و ٢٥ و ٣٠

و ٣٢ و ٣٣ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٧

و ٦٨ و ١٢٧

فرديناند الرابع ؛ ٨٨ و ١٢٨ و ١٢٩

٣٤١ و ٢١٦ و ٢٠٩ و ١٢٧ و ٨٥  
٢٤٣ و  
محمد بن المحروق ؛ ٩٣ و ٣٢٣  
محمد الخلوع ؛ ٨٥ و ٨٧ و ٨٨  
و ٣٢٢ و ٣٤١ و ٣٤٣  
محمد بن أمية ؛ راجع فردنياندي  
دي قالور  
محمد بن عبد المنعم الجلياني ؛ ٣٣٩  
محمد بن يوسف بن الأحمر ؛ ٢٧-٣١  
و ٣٣ - ٤٠ و ٥٧ و ٧١ و ٨٩  
٢٠٩ و ٣١٤ و ٣٢٢ و ٣٣٣  
و ٢٤١  
محمد بن يوسف الثاني ؛ ١١٣ و ١١٤  
و ١١٥ و ٣٦١  
المدجنون ؛ ٤٢ و ٤٣ و ١٥١ و ١٧٤  
المرابطون ؛ ١٢ و ١٩ و ٤٢ و ٤٦  
و ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٧٥ و ٧٧  
و ٨٢ و ١٤٦ و ٣١٨ و ٣٨١  
مراد الريس ؛ ٢٨٥  
مراكش ؛ ٧٣ و ٩٨ و ١٦٥ و ٢٨٧  
مربلة ؛ ٧٩ و ١٠٠  
مرسية ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٦ و ٣٠  
و ٤٤ و ٤٧ و ٦٧ و ١١٣ و ١١٨  
و ٢٨١ و ٣٢٠  
مريمة ؛ ١٥٥  
مصر ؛ ٤٥ و ٩٩ و ١٥٩ و ١٦٤ -  
١٦٧ و ١٦٩ و ٢٣٣ و ٢٥٣ و ٢٥٤  
و ٢٩٦ و ٢٩٨  
مطرف الأشبيلي ؛ ٣٤٠ و ٣٤١  
المعتصم بن صمادح ؛ ٣١٨  
المعتمد بن عباد ؛ ٣١٨  
المقري ؛ ١٦ و ٣٨ و ٢٠٠ و ٢٠٦  
٢٠٧ و ٢٣٠ و ٢٣٤ و ٢٩٨ و ٣٦١  
و ٣٦٤ و ٣٨١  
مليلة ؛ ١٩٩

كمنيس ؛ ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٤٨ و ٣١١  
و ٣١٢  
الكورتيس ؛ ٣١ و ١٢٠ و ١٣١ و ١٣٦  
كوزمي بن عامر ؛ ٢٦٤ و ٢٧٨ و ٢٧٩  
كوندي ؛ ٣١٣ و ٣٧٦  
(ل. م. ن)  
لاين پول ؛ ٩١٤  
لقنت ؛ ١٣ و ٣٠ و ٢٩٤  
لورنتي ؛ ٢٤٢ و ٢٩٧ و ٣٠٨  
لوس فيليس ؛ ٢٧٠  
لوشة ؛ ١٥ و ٤١ و ١٠٥ و ١٥٤  
و ١٥٨ و ١٦٢ و ١٧٤  
لي ، هنري تشارلس ؛ ٣٠٦ و ٣٠٧  
و ٣١٠ - ٣١٢  
ليفي بروقنسال ؛ المستشرق ؛ ٣٧٧  
و ٣٨٠  
ليون ؛ ٥٣ و ٦١ و ٦٢ و ٦٥  
مارتن الأول ؛ ٥٧ و ١١٥ و ١٣٦  
مارتيري ، بيترو ؛ ١٩٨ و ٢٣٣ و ٢٨٣  
ماسدي ؛ ٣٧٦  
مالقة ؛ ٢٩ و ٣٨ و ٤١ و ٤٤ و ٧٨  
و ٧٩ و ٨١ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٩  
و ١٠٠ و ١٠٨ و ١٤٧ و ١٥٤  
و ١٥٧ و ١٦١ و ١٦٣ و ١٦٤  
و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٦٩ و ٣٢٥  
محمد بن ادريس المريني ؛ ٣٤  
محمد بن اسماعيل ؛ ٩٢ - ٩٥  
محمد الأحنف ؛ ١٢١ و ١٢٢  
محمد الزغير ؛ ١١٨ و ١١٩  
محمد الشيخ ؛ ١٢٣  
محمد الغني بالله ؛ ٥٧ و ١٠٥ - ١٠٨  
و ١١١ - ١١٣ و ٣٢٣ و ٣٤١  
و ٣٦٢  
محمد الفاتح ؛ ٢٤  
محمد الفقيه ؛ ٧١ و ٧٤ و ٧٩ و ٨١ -

- الموحدون ؛ ١٢ و ١٩ و ٢٠ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٢ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٢ و ٦٦ و ٧١ و ٧٢ و ٧٥ و ١٤٦ و ١٥٩ و ٣١٨ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢٧ و ٣٣٣ و ٣٨١ و
- الموريسكيون ؛ ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٣١ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٥ و ٢٧٥ و ٢٧٦ - ٢٨٠ و ٢٨٧ - ٣٠٠ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٥ و ٣٠٦ و ٣٠٨ و ٣٧٢ و ٣٧٣ و موسى بن أبي الغسان ؛ ١٨١ - ١٨٤ و ١٨٧ - ١٨٩ و موسى بن ميمون ؛ ٤٨ و ٣١٩ ميلان ، أنطونيو ؛ ١٦٧ و ١٦٨ و مونتيل ؛ ١٠٩ و ١٣١ منديخار ؛ ٢٦٩ و نابل ؛ ١٣٤ و ١٣٧ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ و ناقار ؛ بلاد البشكنس ؛ ٥٣ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ١٣٧ و ناقاريتي ؛ ٢٩٧ و النصرى المعاهدون ؛ ٤٦ و ٤٧ نصر ، أبو الجيوش ؛ ٨٧ و نعيم بن رضوان ؛ ١٨٢ و ١٨٣ و نونيو دى لارا ؛ ٣٦ و ٧٦ و ٧٧ و ( هـ . و . ي )
- هشام بن عبد الرحمن ، ٤٩ هنرى الثالث ، ملك قشتاله ؛ ٣١٤ و ٣٣١ و هنرى الرابع ، ملك فرنسا ؛ ٢٨١ و هنرى الرابع ، ملك قشتاله ؛ ١٢٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٧ و ٣٣١ و
- هنرى دى ترستمارا ؛ ١٠٨ و ١٠٩ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٦ و وادى آش ؛ ٢٨ و ٢٩ و ٤١ و ٦٦ و ٨٣ و ٨٩ و ٩٣ و ١٠٦ و ١١٨ و - ١٢٠ و ١٥٤ و ١٦١ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٦ و ٣١٤ و وهران ؛ ١٧٢ و ٢٣٤ و ٢٩٦ و يحيى بن ذى النون ؛ ٥٠ و يحيى بن غانية ؛ ١٩ و يعقوب المنصور ، السلطان ؛ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢ و ٧٢ و ٧٩ و ٩٧ و يغمراس بن زيان ؛ ٧٣ و ٧٤ و اليهود المنتصرون ؛ ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٩ و يوحنا الأول ، ملك قشتالة ؛ ١٣٢ و يوحنا الثانى ؛ ١١٦ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٢ و ١٣٢ و ١٣٧ و ١٣٨ و يوسف أبو الحجاج ؛ ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ - ١٠٠ و ١١١ و ١١٠ و ١٥٠ و ١٦٠ و ٣٤١ و ٣٤٨ و ٣٥٠ و ٣٥٢ و ٣٦٤ و يوسف بن الأحمر ، ( الثانى ) ؛ ١١٣ و ١١٤ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و يوسف المستنصر ؛ ٢٠ و ٢٥ و ٧٢ و يوسف بن تاشفين ؛ ١٢ و ١٩ و ٥١ و يوسف بن سراج ؛ ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و يوسف بن كماشة ؛ ١٨٥ و ١٩٩ و يوسف بن محمد ؛ ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و